سلسلة: شرح أحاديث سيد البشر ﷺ (- 2 -)

شرحُ حديث أصحاب الغار والصخرة

لفضيلة الشيخ
د/ محمـــد الدبيسي
حفظه الله تعالى وعفا عنه

الطبعة الثانية
ربيع أول 1434 – فبراير 2013

الطبعة الثانية

ربيع أول 1434 هـ / فبراير 2013 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعدُ..

فشرحُ حديث الصخرة مأخوذٌ من عِدة خطب لفضيلة الشيخ الدكتور/ محمد الدبيسي- عَفا الله عنه. حيث بَيَّن فيه الرسولُ ﷺ ما يَرفع البلاءَ النازل، وكيف يتحمل الجميعُ مسئوليتهم في دَفْع تلك الشدائد التي حَلَّتْ بنا – بأمْرِ الله ولِحِكَمٍ يَعلمها – حتى تَندفع الصخرة، وتتنزل الرحمة.

إنَّ ما أشار إليه الحديثُ من عوامل رَفْع البلاء مَدْعومة بالإخلاص والخوف والتوبة، إنما تُبين ما وراءها من أعمالٍ على نفس المنوال وتُنادي على الأمة بالمسارعة بتحقيقها، وجَعْلِها خَبِيئةً لا يعلم بها إلا الله، يَستجيب بها الدعاءَ ويَقبل بها العمل ويُفرِّج بها عن أمة محمد ﷺ؛ إذ هي الآن في ظَرْف دقيق من أخطر ما مَرَّ بها من مصاعب وما أحاط بها من مصائب، تستدعي الوقوف منا جميعًا في مواجهة تلك الأخطار.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا وأن يأخذ بأيدينا إلى العمل بذلك حتى يصلحَ الحال ويتغيرَ إلى أحسن الأحوال.

تلك الرسالةُ تَذْكِرةٌ بذلك، وهي جهد المُقِلِّ، تَنتظر نصيحةً تَسُدُّ خللًا ودعاءً يرفع البلاء. فاللهم وَفِّقْ للخير قائلَها وكاتبها وناشرها والناظر فيها.. يا خير مسئول يا رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مسجد الهدي المحمدي

ميدان طور سيناء – الظاهر – القاهرة

رمضان 1433هـ، يوليو 2012م

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70، 71].

أَمَّا بَعْدُ..

فإنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كتابُ الله تَعَالى، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحدَثة بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على محمدٍ النبي وأزواجِه أمهات المؤمنين وذريِّته وآلِ بيته كما صليتَ على آل إبراهيم إنكَ حميدٌ مجيدٌ.

* * *

في الفترة الأخيرة التي توالت وتكاثرت البلايا النازلة على المسلمين، لا ينسى المسلمون أنَّ هذا البلاء إنما نَزَل بأمر الله تعالى، ونزل على عَيْنِ الله جلَّ وعلا، فاللهُ ﷻ هو الذي قدَّر ذلك وقضاه؛ ليَرَى من المؤمنين جُهْدَهُم[1] وسعيَهم في رفع هذا البلاء؛ لأنه ما

(1) «الجُهْد» - بضم الميم - هو الطاقة والوُسع، و«الجَهْد» - بفتح الجيم - هو الغاية والنهاية أو المَشقَّة، وقيل: هما لغتانِ بمعنًى.

نزَّله عليهم إلا بما جَنَتْ أيديهم وما اقترفوا من السيئات في حق الله تعالى، وفي حق دينهم ورسولهم، وفي حق أنفسهم، فهو يعلم ﷻ ما نَزَل بهم، وهو الذي خَلَقَه ويُدَبِّره ﷻ، ويُسَلِّطُ أولئك على هؤلاء وهؤلاء على أولئك، حتى يتوبَ المؤمنون إلى ربهم.

في غمرة الأحداث، وفي غمرة الضِّيق وانتظار الفرج، إذَا بالمسلمين يَنْسَوْن أسبابَ الفرجِ ورفعِ الكرب، ويحاولون أن ينظروا يمينًا وشمالًا، أو أن يستعينوا بأي شيء لِيَفُكَّ عنهم ذلك النازل. وكلُّ ذلك ينبغي أن يُردَّ إلى الله؛ يعني: نَزَلَ عليهم البلاءُ من هنا ومن هنا، وفي بلدهم وخارج بلدهم، وبدأ الكفَرةُ والظَّلَمَة في كل مكان يُضيِّقون الخناق على المؤمنين في كل توجهاتهم، وبدأت الحربُ تأخذ أشكالًا سافرةً تُبيِّن أن المقصود بهذه الحرب هو الإسلام. والمسلمون يمتلئون ضيقًا وحُزْنًا وكَمدًا[1]، يريدون من الله أن يُفرج عنهم مثلًا أو ينتظرون شيئًا خارجًا عن العادة وعن نواميس[2] الكون يرفع اللهُ به البلاء ويهزم لهم الأعداءَ ويُريهم فيهم أيامًا سوداء، ولكنهم نَسُوا أن الله ما أنزل ذلك عليهم ذلك إلا وهو يراهم ومُطَّلِعٌ عليهم، وأنه هو جل وعلا الذي أنزل ذلك بهم.

عندما يقول المرء: «مَنَعُوا عنَّا كذا وكذا، وسَجَنوا أو ضَرَبوا كذا وكذا من المسلمين، داخلَ البلاد الإسلامية وخارجَها». يقال له: «هم لا يفعلون شيئًا على الحقيقة، بل الفاعل على الحقيقة هو الله تعالى، والبشرُ ما هم إلا أسواط[3] الله تعالى، يُنَبِّهُ المؤمنين بها ليعودوا إليه.. فيرفع عنهم ذلك ﷻ، وليُعلِّمهم أنه ما نزل عليهم ذلك – إلا وهو القادر على رفعه – وبسبب ما كان منهم من تقصيرٍ وتَفْريطٍ وتَشَتُّتٍ وتباغُضٍ وتَحاسُدٍ.. وما كان منهم مما

(1) «الكَمَدُ»: هو الحُزْن المكتوم. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [ك م د].

(2) «نواميس» جمع «ناموس»، وله أكثر من معنًى، والمراد به هنا: القانون. انظر - بتصرفٍ: «المعجم الوسيط»، مادة: [ن م س]، وقد أشار إلى أنها - بهذا المعنى - لفظةٌ مُولَّدةٌ.

(3) جمع «سَوْط» وهو: ما يُضرَب به. ويُجْمَع أيضًا على «سِياط».

هو خارجٌ عن أوامره ﷻ وانشغالٌ بالدنيا والقيام عليها، ونسيانُ الآخرة والغفلة عن أمورها.

لذلك نعود مرة أخرى نُذكِّر كلَّ حين بحديث الصخرة، ولنا فيه اليوم فوائد أُخر غير ما وقفنا عليه من سنوات عِدَّةٍ؛ لنرى كيف تَنْفَرِجُ هذه الصخرة التي سَدَّتْ هذا الغار علينا، وصِرنا لا نستطيع أن نتحرك يمينًا ولا شمالًا، وننتظر أن نأخذ على رءوسنا في كل مكان، ونُفاجأ بالرغم من ذلك في كل وقتٍ وحين بما يفعله المسلمون مما يكون سببَ إساءتهم إلى ربهم وسببَ زيادة نزول البلاء عليهم!

حديثُ الصخرة - الذي سنشرحه في هذه الرسالة إن شاء الله تعالى - يُبين لنا طريقًا ينبغي أن نَسْلكه اليومَ وكلَّ يوم، لا ننساه ولا نتزحزح عنه، حتى يرفعَ الله تعالى البلاءَ ويُخففَ عَناءه، ويمنعَ أعداءَ الدين مِن أن يُهينوا دِينَه ويُحاربوه هذه المحاربةَ التي امتلأت بها الدنيا.

لكنَّ المسلمين اليوم نائمون عن أن يلجأوا إلى الله تعالى! عَلِموا أنَّ الله هو الذي أنزل ذلك، وأنَّ كل شيء بيده، ومقاليد الأمور له، وأن ما شاء كان وما لم يشأْ لم يكُنْ، ومع ذلك لم يَرْجِعوا إليه جل وعلا ليرفعه عنهم!

حديثُ الصخرة يُبيِّن كيف يُسارع المؤمنون لِيَفُكَّ عنهم ﷻ ما أحاط بهم، وألَّا يتأخروا عن تلك المسئولية ليرفعوا عن أنفسهم قَبْلَ غيرهم ما نَزَلَ بهم، ويصدُّوا ما يُوشِكُ أن يَنْزِل بهم لو استمروا على ذلك؛ لأنهم يستحقون أكثر من ذلك، ولكنَّ رحمة الله تعالى تُخفِّف شيئًا مما ينزل مع بقاء الموعظة فيما نَزَل. لذلك كان شَرْحُنا لهذا الحديث الذي وَعَظَ

به النبيُّ ﷺ المؤمنين وأَمَرَهم أن يَكونَ - أي هذا الحديث - دأبَهم[1] ودَيْدنَهم[2] عندما ينزل بهم البلاءُ، أو قبل أن يَنْزِل بهم حتى يحتاطوا لما يمكن أن يُحيط بهم.

(1) «دَأَبَ فلانٌ في عَمَلِه» يَدْأَبُ دَأْبًا- بالسُّكُونِ، ويُحَرَّكُ «دأَبًا» - ودُءُوبًا؛ إذَا جَدَّ وتَعِبَ، فهو دَئِبٌ. و«الدَّأْبُ»: الشَّأْنُ والعَادَةُ والمُلازَمَةُ. وهو معنى مجازيٌّ كما في «أساس البلاغة». يُقالُ: «مَا زَالَ ذلك دَأْبَكَ ودِينَكَ ودَيْدَنَكَ ودَيْدَبُونَكَ» كُلُّهُ مِنَ العَادَةِ، وفي الحديث: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ»، وقولُه ﷻ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [غافر: 31]، أي: مِثْلَ عَادَةِ قَوْمِ نوحٍ. انظر- بتصرفٍ كثيرٍ واختصارٍ: معجم «تاج العروس»، مادة: [د أ ب]. وحديث: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ...» انظر تخريجَه وتمامَ نَصِّه وشرحًا لمعانيه الجميلة في: «حال المؤمنين في شعبان» للمؤلف، الوظيفة السابعة «التهجد وطول القيام».

(2) «الدَّيْدَن»: الدَّأْبُ والعَادة. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [د د ن]، وعطف الديدن على الدأب من قبيل عَطْف المترادف لتقوية المعنى وتأكيده.

الفصل الأول

التَّفاني

في بِرِّ الوالدَيْنِ وخِدْمَتِهما

وإيثارُهما على النَّفْسِ والأهلِ والوَلَدِ

يقول الرسول ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوُا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ: اللَّهُمَّ! كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَلَمْ أَغْبِقْ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ - وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ - أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ! كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ! إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ! لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا! اللَّهُمَّ! فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[1].

---

(1) متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في عدة مواضع: منها؛ في كتاب البيوع (2215)، والإجارة (2272) وهذا هو لفظُها، والمزارعة (2333)، وأحاديث الأنبياء (3465)، والأدب (5974). وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه =

كما أشرنا في هذه الرسالة نحاولُ أن نُذكِّر بشيءٍ تنفرج به هذه الصخرةُ التي حَلَّتْ بنا ونزلت علينا، وأصبح المحبوسون في الغار ينتظرون الموتَ أو الموتَ! لا ينتظرون شيئًا ثالثًا، قد انقطعوا في جبلٍ من الجبال، ونزلت عليهم الصخرة، وسَدَّتِ الغارَ.. لا يسمع بهم أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يُجيب لهم أحد صوتًا إلا الله ﷻ.. لا ينصرهم أحد إلا الله.. لا يفتح لهم هذه الصخرة إلا الله. وكأنها تُمثِّل الحالة التي نحن فيها: لا يَسمع أحدٌ للمسلمين صوتًا، ولا يُجاب لهم طلبٌ، ولا يُنظَر لهم بعين الاعتبار ولا غيره. كلما زادوا استسلامًا

في كتاب الرقاق (7125، 7126). وقد خرّج الحافظ ابن حجر الحديثَ تخريجًا لا مزيدَ عليه في «الفتح»، وحَكَم على كل إسناد بما يليق بحاله، وهذا هو نص كلامه بعد إضافة أرقام الأحاديث وحُكْم درجة الحديث عند بعض المعاصرين للاستئناس بكلامهم بين قوسين:

«لم يُخْرِج الشَّيْخَانِ هَذَا الحَدِيث إِلَّا مِنْ رِوَايَة ابْن عُمَر، وَجَاءَ بِإِسْنَاد صَحِيح عَنْ أَنَس أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الدُّعَاء (ح: 192، صـ 868، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1987)، و مِنْ وَجْه آخَر حَسَن (ح: 200)، وَبِإِسْنَاد حَسَن عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَهُوَ فِي صَحِيح ابْن حِبَّانَ (3/ 251 وحسّن إسنادَه أيضًا الشيخُ شعيب في التحقيق، والحديث تحت عنوان: «ذِكر الخصال التي يُرتجى للمرء باستعمالها زوالُ الكرب في الدنيا عنه»). وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَر عَنْ أَبِي هُرَيْرَة (الطبراني في الدعاء، 193)، وَعَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير مِنْ ثَلَاثَة أَوْجُه حِسَان أَحَدهَا عِنْد أَحْمَد (4/ 274 ميمنية، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده حسن، رجاله ثقات»)، وَالبَزَّارُ، وَكُلّهَا عِنْد الطَّبَرَانِيِّ (الطبراني في الدعاء، 189، 190، 192)، وَعَنْ عَلِيّ (في الدعاء للطبراني، ح: 187)، وَعُقْبَة بن عَامِر (الطبراني في الدعاء، 195)، وَعَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ (الطبراني في الدعاء، 201)، وَابْن أَبِي أَوْفَى (الطبراني في الدعاء، 196) بِأَسَانِيد ضَعِيفَة، وَقَدْ اسْتَوْعَبَ طُرُقَه أَبُو عَوَانَة فِي صَحِيحه وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الدُّعَاء (صـ 863: 876)». انتهى بتصرف، «فتح الباري»، شرح حديث رقم (3465). وسنذكر إن شاء الله تعالى فيما يلي بعضَ الزيادات من الروايات التي صحَّحها أو حسَّنها الحافظُ، لأن روايات الحديث - كما قال الحافظ - تُفسِّر بعضُها بعضًا، لا سيما إذا كانت صحيحة، وعادةً لن نذكر أرقام الأحاديث اكتفاءً بما ذكرناه هنا لعدم الإطالة، مع عدم التقيُّد بذكر نص رواية المتن أعلاه فقط.

زاد البلاء وزاد الكرب.. كلما ازدادوا بُعْدًا عن الله تعالى ازدادتْ نقمته[1] وازداد بلاؤه عليهم، حتى يفهموا ثم يعملوا بهذه المعاني التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث، وذلك هو المهم الذي نود أن نشير إليه فيما ذكر النبي ﷺ من ألفاظٍ منيرةٍ؛ ليتحمل كلٌّ مسئوليته قبل أن تَسُدَّ عليه الصخرة هو الآخر ولا يستطيع أن يخرج منها. فليس لهم في الأول والآخر إلا الله ﷻ.

***

يقول النبي ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ[2] مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

وهي حكاية يحكيها النبيُّ ﷺ على سبيل العِبرة لأهل الإيمان، يُذكِّرهم بما ينبغي أن يتعلموه في دينهم، ويُبين لهم أنه يمكن أن ينزل بهم مثلُ ذلك، ويوضح لهم ﷺ كيف يستعدون قبل أن ينزل البلاء، فإذا نزل البلاءُ ارتفع الدعاء والعملُ الصالح إلى الله فيخفف المولى به؛ لأن أصحابه – أصحاب ذلك العمل الصالح - كان لهم صوتٌ مسموع عند الله تعالى قبل ذلك. يعني: قَدَّموا لله في عَهْدِ رَخائهم ذلك العملَ الصالح الذي لو نَزَل بهم البلاءُ ودَعَوْا ربَّهم لشَفَع لهم ذلك العملُ عند الله تعالى، وكانت تلك الأعمالُ الصالحة هي المُنْقِذةَ والمُنْجِيةَ التي يُنْجِيهم بها المولى ﷻ بفضله.

العبرة الأولى: هؤلاء الثلاثة لا شك أنهم كانوا مؤمنين وكانوا متقين صالحين، بدليل ما فعلوا من أعمال صالحة واستجاب الله لهم بها، وبالتالي لما كانوا - وهي العبرة الأولى في

---

(1) «النَّقِمةُ» و«النَّقْمةُ»: المكافأةُ بالعقوبة، والجمْعُ: «نَقِمٌ» و«نِقَمٌ» على التوالي. انظر – بتصرف: «المصباح المنير»، مادة: [ن ق م].

(2) وفي رواية أخرى في الصحيح: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ». و«الرَّهْطُ»: مَا دُونَ عَشَرَةٍ مِنْ الرِّجَالِ لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ، وَهُوَ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ. وَمَا دُونَ السَّبْعَةِ إلَى الثَّلَاثَةِ «نَفَرٌ». وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: «الرَّهْطُ وَالنَّفَرُ مَا دُونَ العَشَرَةِ مِنْ الرجال». انظر – بتصرف واختصار: «المصباح المنير» للفيوميّ، مادة: [ر هـ ط].

هذا الحديث - مُنْطَلِقين، لا شك أنهم كانوا منطلقين ليعملوا عملًا صالحًا لله تعالى.. منطلقين لما فيه رضا الله تعالى[1]، فجاءهم الامتحان من الله تعالى الذي يكون عبرةً لهم ولمن بعدهم. فإذا بهؤلاء الصالحين قد بَعُدَت بهم المسافات، وانقطعوا عن طريق بلادهم، وهطلت الأمطارُ وانقطعت السُّبل، فدخلوا يَسْتَخْفُون في غارٍ حتى يقف المطر ثم يخرجون بعد ذلك ليستكملوا سَيْرهم أو رُجوعهم إلى أهلهم. فنزلت صخرةٌ فانطبقت على باب الغار فأغلقته! لماذا؟ لأن الله تعالى هو الذي فعل ذلك ورتَّبه. هم خارجون لله تعالى.. هم ساروا ليقوموا بأي أمْرٍ من أمور الدين أو الدنيا اللازمة، فإذا بالصخرة تنزل عليهم! يسوقهم الله تعالى نفسُه جلَّ وعلا لِيُرِيَهم من آياته، ولِتكون تلك الآياتُ عِظاتٍ للمؤمنين اليومَ وكلَّ يوم، فهو الذي ساقهم بهذا السَّيْر، وهو الذي أبعدهم حتى وصلوا، وهو الذي أنزل المطرَ، واضطرهم إلى أن يلجأوا إلى الغار، ثم أنزل الله ﷻ الصخرة على باب الغار. فلم تنزل الصخرة قبل أن يأتوا، بل كانت تنتظرهم بأمْرٍ من الله تعالى! لذلك كان ذلك ترتيبَه هو ﷻ، لا يفعل الله تعالى ذلك بأوليائه يُريد هلاكَهم، وإنما يفعل ذلك لينظر كيف يعملون.. لينظر كيف يرتفع عملُهم.. لينظر كيف يتوبون إلى الله.. لينظر ما يُقدِّمون من العمل الصالح لِتَنْفَكَّ به الكُرُبات وترتفع به البلايا[2].

---

(1) يَشْهد لذلك رواية الحديث الذي في «المسند» - وصحّح الشيخ شعيب إسنادَه على شرط الشيخين (3/ 142 الميمنية)- عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ فِيمَا سَلَفَ مِنَ النَّاسِ انْطَلَقُوا يَرْتَادُونَ لِأَهْلِهِمْ»، أي: يطلبون لأهلهم مكانًا فيه المرعَى والمنزل الطيّب، وهو من قولهم: بَعَثْنا رائدًا «يَرُودُ» لنا الكَلأَ والمنزِلَ و«يَرتادُه» بمعنًى واحد، أي: يطلبُ وينظر، فيختار أفضَله. انظر - بتصرف واختصار: مُعجمَ «العين»، مادة: [ر و د]. ولا شك أن ذلك كان عملًا صالحًا؛ ففي الحديث: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ». متفقٌ عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: البخاري (2442)، ومسلم (2580).

(2) ويدلّ على ذلك المعْنَى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 42، 43]. قوله تعالى: =

دخلوا إلى الغار لِيَنْجُوا مما هم فيه من مطر شديد، فإذا بهم قد انقطع رُجوعُهم كأنهم لن يعودوا أبدًا، وكأنَّ هذا الغار سيكون هو قبرَهم الذي لن يخرجوا منه إلَّا يومَ القيامة.

تجهيز صالح الأعمال لرفع البلاء

دخلوا الغار فنزلت الصخرة. وطبيعة النفس البشرية عندما يُغلَق البابُ على الناس في الحافلة مثلًا، فإنهم لا بد أن يحاولوا أن يفتحوا الباب وأن يدفعوا بأيديهم وأرجلهم وجنوبهم وظهورهم، لا شك أن أصحابَ الغار فعلوا ذلك. لم يذكره النبي ﷺ ليفهمه السامعون وليُحَصِّلوه بأنفسهم. فهل عندما نزلت الصخرة جلسوا في جانب الغار وقالوا: «ادعوا الله تعالى لا ينجيكم إلا صالحُ أعمالكم»؟! لا.. لا يمكن أن يكون ذلك لأنه خلاف مقتضى النفس البشرية، وإنما قاموا يحاولون أن يدفعوا هذه الصخرة، لكنها لا تندفع، فقد جاءتْ بأمر الله ﷻ لِتَسُدَّ عليهم ذلك، لِينظرَ ﷻ كيف يعملون. أخذوا يصيحون ويدفعون ويصرخون.. أخذوا يستغيثون، ولكن لا مُغيثَ ولا مُنْجِيَ، ولا صخرة تَنْدَفعُ ولا شيء. عندها انتهت قُواهم وبدءوا في الاستسلام إلى ما هم فيه من أمْرٍ، وانْتَحَوْا جانبًا في الغار ينتظرون إما أن تأتي معجزة السماء وإما أن يكون هذا الغارُ قبرَهم

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ يعني: الفقر والضيق في العيش، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: لعلّهم يَدْعُون اللهَ ويَتضرَّعون إليه ويَخْشعون. ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: فهلَّا إذ ابْتليْنَاهم بذلك تضرَّعوا إلينا وتَمَسْكَنُوا إلينا؟ وفي ذلك حثٌّ من الله الرحيم ﷻ للعباد على الدعاء والتضرّع عند الابتلاء بالبأساء والضراء. انظر- بتصرّفٍ كثيرٍ: «تفسير الطبري» و«ابن كثير» رحمها الله تعالى، تفسير الآيتين: «42، 43» من سورة الأنعام. وبالإضافة للمعنَى السابق فمِنَ المهمِّ أن نُنبه أن المؤمن حال ابتلائه لا بدّ أن يتحلّى بالصبْر، وأن يرضَى بقضاء الله تعالى حتى يكون هذا البلاء في ميزان حسناته، لذلك قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ: فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ». أخرجه الترمذي (2396) وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ» اهـ. فإذا ابتلاك اللهُ فلا تغضبْ ولا تحزنْ، بل أبشرْ لأن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم كما أشار الحديث الشريف.

إلى يوم يُبعثون، وهي حالةٌ صعبة يرى المرءُ فيها أن الموت أقرب إليه من أي شيء. هو جالس لا ينتظر شيئًا، لا أكلًا ولا شرابًا ولا طعامًا، وإنما قد جلس مُضرِبًا عن الطعام غَضَبًا عنه، ينتظر أن تَفْنَى قُواه، ويأخذَه الموتُ، ولا يجد مَن يُغسِّله ويُكفِّنه ويصلِّيَ عليه، لقد أتت نهايتُه على هذه الحالة العجيبة، إذا بالله تعالى ألهمهم - وهو الذي رَتَّبَ لهم هذه الوقعة التي وقعوا فيها، ومع ذلك هو لا يترك عباده ﷻ - ألهمهم حينئذٍ طريقًا من طُرق النجاة: ألهمهم أن يفعلوا آخِرَ ما في وُسْعِهم؛ وهو أن يستغيثوا بربهم. ولكن بِمَ يستغيث المؤمنون اليوم؟ إنهم لم يُقَدِّموا شيئًا يستغيث المرء به، إلا مَن رحم الله تعالى!

هذه مصيبة المؤمنين اليوم، وهو أنه عندما يأتي الآتي ليقول: «ها قد وقعْنا في الغار وانسدَّتِ الصخرة، هيا استغيثوا بصالح أعمالكم». مَن مِنَّا الذي له أعمال صالحة يمكن أن تنفرج بها الصخرة ولو قليلًا؟! من مِنَّا الذي يستطيع أن يدَّعي أعمالًا فيها إخلاص - كما ذكر هؤلاء مِن أعمالهم - تكون بفضل الله تعالى مَنجاةً لنا مما وقعنا فيه، ورحمةً بنا يندفع بها البلاء؟! الله الموفق.

قال أحدهم لما جلسوا ينتظرون الموت: «لَنْ يُنَجِّيكُمْ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ تَعَالَى»[1]. يعني: لن ينجيكم من هذا البلاء - أيها المؤمنون الذين وقعتم في البلاء.. ونحن الآن جميعًا واقعون فيه - لا ينجيكم إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم. فإنْ قلنا: ليس هناك أعمال صالحة هي أوثق أعمالنا قد عَمِلناها يمكن أن يدعوا المرءُ بها ربَّه بقلب مطمئن فتكون سببًا لأن يُستجاب له. فلا أقلَّ من أن نتشبَّهَ بهؤلاء الأولياء الثلاثة[2]، فإذا أحاطت

(1) وفي رواية أنس بن مالك ﷺ التي سبق الإشارة إليها: «فَسَقَطَ عَلَيْهِمْ حَجَرٌ مُنْجَافٍ حَتَّى مَا يَرَوْنَ مِنْهُ خُصَاصَةً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ وَقَعَ الْحَجَرُ وَعَفَا الْأَثَرُ وَلَا يَعْلَمُ بِمَكَانِكُمْ إِلَّا اللهُ، فَادْعُوا اللهَ بِأَوْثَقِ أَعْمَالِكُمْ».

(2) عَدَّ العلماءُ هؤلاءِ الثلاثةَ مِن الأولياء؛ لأن الله تعالى خَرَق لهم نواميس الكون وفرَّج عنهم الصخرةَ بمجرد دعائهم بدون أي أسباب دُنيويَّة.

بنا الصخرةُ الإحاطةَ الكاملة جاء هذا العمل الصالح يدفعها. ولعلَّ البعضَ قد نوى أن يُجَهِّزَ شيئًا يرفع به البلاء، وأن يشارك بعملٍ يجعلُه من الأعمال الخالصة لوجهه الكريم ﷻ يدفع به هذا البلاء النازل لئلا يقعَ هو فيه. فأنت لا زلتَ في سَعَةٍ، والله تعالى قد أرسل لك الموعظةَ قبل أن تُوضع وتُحبَس هذا الحبس الأليم في ذلك الغار، وإن كُنَّا جميعًا اليوم في ذلك الغار المعنويِّ نستغيث بالله تعالى منه.

فضلُ برِّ الوالدين وأهميتُه

قال الأول: «اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ[1] قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا».

وكأنَّ الاهتمام ببرِّ الوالدين قد قَدَّمَه وبدأ به النبيُّ ﷺ؛ لِكَوْنِه من أهم الأمور التي يدفع الله تعالى بها البلاء[2]. ويندرج تحت هذا البرِّ أعمالٌ أخرى: كصلة الأرحام، والقيام

---

(1) «غَبَقَهُ»: سقاه غَبوقًا، والغَبوق: ما يُشرب بالعشيِّ، وما يُحلب بالعشيِّ. انظر المعجم الوسيط، مادة: [غ ب ق].

(2) وفي الحديث الشريف قال ﷺ: «رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ». أخرجه الترمذي (1899) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا، ورجَّح الترمذيُّ وَقْفَه لكن حسَّنه لغيره الألباني مرفوعًا في «صحيح الترغيب» (2501). وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَيُزَادَ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». أخرجه الإمام أحمد (3/ 266) وحسَّنه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب» (2488). وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوِ احْفَظْهُ». أخرجه الترمذي (1900)، وقال: «حديث صحيح». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ. فَقَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ». أخرجه البخاري (3004) ومسلم (2549). وعن معاوية بن جاهمة ﷺ: «أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا». رواه النسائي (3104) وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (2485): «حسن صحيح». اهـ. وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ». أخرجه البخاري (527) ومسلم بنحوه (137)... ونختم تلك الأحاديث التي بيَّنَتْ فَضْلَ برِّ الوالدين، بهذا الحديث الجميل: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ =

على مصالح المؤمنين، والتآلف والتراحم، وترك البغضاء والشحناء، والتوبة من المظالم بينه وبين الناس. يقول المرء مثلًا: «اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران.. اللهم كان لي أقارب وكانوا يفعلون فيَّ كذا وكذا وكذا، فذهبتُ إليهم واصطلحتُ معهم.. اللهم فعلتُ كذا وكذا لأهلي مِن ترك البغضاء والشحناء والتصالح وكذا وكذا...» إلى آخر هذه الأمور التي تتعلق بعلاقة المسلمين بعضِهم ببعض.

«اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ».

ذَكَر هذا لأهميته، ولكون المرء ينبغي أن يسارع في هذا الأمر من الناحيتين: من ناحية تَرْكِ العُقوق لهما، ومن ناحية البِرِّ والإحسان الزائد الذي يرجو به الرحمةَ، ويُفَكُّ به العَناء، ويُرفع به البلاء.

ازدياد أهمية بر الوالدين في حال كِبَرهما أو كِبَر أحدهما

«اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ».

وعندما يكونان شَيْخَيْنِ كبيرينِ فهما أولَى بالبر كما ذكر الله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24]، وأن يَدْعُوَ لهما لأنه عندما كان صغيرًا كانا يرجوانِ حياتَه، وعندما صارَا شيخين كبيرين ينتظر وفاتَهما! وعندما كان المرءُ مثلَهما ضعيفًا لا يستطيع أن يقوم بنفسه، كانا يقومان عليه ويَسْهران على راحته، ويُمَرِّضانِه ويُطْعمانِه ويَنْفِيانِ عنه الأذَى، ويقومان له بما لا يتمكن هو في مثل هذا الحال أن يفعل شيئًا لنفسه. فلما كَبِرَا صارَا مُحتاجَيْنِ لمثلِ

قَالَ: لَا. قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَبِرَّهَا». أخرجه الترمذي (1904) وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (2504)... بقي أن نقول إنه مَنْ مات والداه فقد فتح الشارعُ طريقًا لبِرِّهما؛ قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصِلَ أَبَاهُ فِي قَبْرِهِ، فَلْيَصِلْ إِخْوَانَ أَبِيهِ بَعْدَهُ». أخرجه ابن حبان في صحيحه (ح: 432)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (2506). وقال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». أخرجه مسلم (1631).

ذلك، فلا أقلَّ مِن أن يُوَفِّيَهما بعضًا من حَقِّهما، لا أنْ يقوم بالعكس؛ فيُقَصِّر في تلك الحقوق، ويُقدِّم نفسَه وأهلَه وولدَه ومالَه عليهما، أو يقدم ما يشتهي من أمور الدنيا على ما ينبغي أن يكون لهما من حقوق. دَعْكَ مِنْ أنَّكَ لا بد أن تؤدي تلك الحقوقَ لأنها واجبةٌ عليك، أدِّها أيها المسكين لأنها ترفع البلاء عنك[1].

إيثار برِّ الوالدين وخدمتهما على مَن سواهما

«أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ».

وكان الرجل الصالح لا يَغْبِقُ قبلهما أهلًا ولا مالًا. و«الغَبُوقُ» هو حَلْب العَشاء، فكان يَحْلِب لهما في الصباح ما يُفْطرانِ به[2]، ويَحْلِب لهما في العَشاء ما يَتَعَشيانِ به. فكان لا يُقَدِّم عليهما أحدًا لا «أَهْلًا وَلَا مَالًا» يعني: لا صغيرًا ولا كبيرًا، لا حقيرًا ولا ذا شأن. و«أَهْلًا» يعني: زوجته وأولاده. و«لَا مَالًا»، يعني: ولا عبيده ورَقِيقه، فالعبيد والرقيق يُسَمَّوْن بالمال. فلا يقدم عليهما أحدًا فضلًا عن نفسه؛ لأن المرء يُقدِّم أولاده على نفسه، فإن كان يقدم أبويه على أولاده فمِنْ باب أولى يقدم أبويه على نفسه.

ثم إنه أخذ مَواشِيَه ونَأَى[3] به الطَّلَبُ - أي: طَلَبُ الشَّجَر - يعني: أخذ المواشي ليرعى بها فنأى به طلبُ الشجر وطلبُ المرعى حتى ناما. يعني: لم يستطع أن يرجع إليهما لِيَحْلِبَ لهما غَبُوقَهما لِيُعَشِّيَهما ويَبِيتَا راحِيَيْنِ عنه.

---

(1) ويشهد لذلك المعنى السابق قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23، 24]. أي: وَصَّى الربُّ جل وعلا الأبناءَ بالإحسان إلى الوالدين، وقرن ذلك بالتوحيد في أكثر من آية، ثم شدَّد على ذلك حال كبر أحدهما أو كليهما.

(2) وحَلْب الصباح تسميه العرب: «الصَّبُوح».

(3) «نَأَى» وَفِي بَعْض الروايات «نَاءَ». فَالْأَوَّل بِجَعْلِ الْهَمْزَة قَبْل الْأَلِف، وَبِهِ قَرَأَ أَكْثَر الْقُرَّاء السَّبْعَة، وَالثَّانِي عَكْسه، وَهُمَا لُغَتَانِ وَقِرَاءَتَانِ، وَمَعْنَاهُ: «بَعُدَ». انظر - بتصرّف: «شرح الإمام النووي على صحيح مسلم»، شرح حديث رقم (2743).

فَضْل تحمُّل المشقة في سبيل بر الوالدين وخدمتهما

يقول ذلك المسكين الصالح بعد ذلك في إحدى روايات الحديث: «فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَلَمْ أَغْبِقْ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا».

في هذه الجملة الأخيرة أمران؛ الأمر الأول: أنه لم يُرِدْ أن يُوقِظَهما لِمَا رأى أن النوم لهما راحة، والأمر الثاني: أنه كره أن يقدِّم عليهما نفسه أو أهله؛ بأن يتعشى هو وأهلُه.

«فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ».

قال: «حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ»؛ «بَرَقَ» مفتوحة الراء[1]، «فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ تَحْتَ قَدَمَيَّ»، يعني: يَصيحون ببكاءٍ من الجوع تحت قدمي. يريدون أن يأكلوا أو يشربوا، وهو لا يقدم على أبويه أحدًا. انظر إلى هذه القصة الجميلة لِتَرى تلك المعانيَ التي بها يرفعُ اللهُ تعالى البلاءَ، وهي التي ذكرها في قوله: «فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَلَمْ أَغْبِقْ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَى بَرَقَ الفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ تَحْتَ قَدَمَيَّ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ».

انظر إلى هذه الأحوال الثلاثة لترى هذا المعنى!

الحال الأولى: «فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا». أي: كره أن يوقِظَ والديه.

---

(1) أي: حتى طلع الفجر؛ من قولهم: «برَقَ» الشيءُ - كالسيفِ وغيره - يَبْرُق بَرْقًا وبريقًا وبَرَقانًا، أي: لَمَعَ وتلألأ، والاسمُ: البريقُ. ويُقال: «لا أفعَله ما بَرَقَ النَّجْمُ في السَّماءِ» أي: ما طَلَعَ. وقرأ نافعٌ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ [القيامة: 7] بفتح راء «برَق» يعني: لمع بصرُه من شدّة شخوصه، فتراه لا يَطرِف. قال مجاهد وغيره: «هذا عند الموت». وقال الحسن: «هذا يوم القيامة». انظر - بتصرّف كثيرٍ واختصار: معجم «تاج العروس»، مادة: [ب ر ق]، وتفسيرَ القرطبي، تفسير الآية السابعة من سورة القيامة.

والحال الثانية التي وصل إليها ذلك الصالح من البِرّ: «فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ». أي: وقف والقَدَح على يديه ينتظر أن يستيقظا. وكان يمكن لهذا المسكين أن يجلس مثلًا، ومَن الذي كان سيلومه إذا حلب لهما غَبُوقهما وجلس ينتظر أن يستيقظا فيشربا. ليس فيها شيء أن يجلس! ولن يلومه أحدٌ كذلك لو جمعَ أولادَه وأهلَه وعَشَّاهم وقدم لهم عشاءَهم ليناموا، وانتظر أباه وأمه حتى يستيقظا ليشربا أو ليأكلا... كلا لم يفعل شيئًا من ذلك، وما كان ليلومه أحدٌ لو فعل. لذلك كان ذلك العملُ له قِيمتُه عند الله تعالى ودرجتُه: أنه وقف والقدح على يده ينتظر أن يستيقظا، والصبيةُ يَتصايَحُون يريدون أن يشربوا، لم يَغْبِقْ قبلهما أحدًا، ولم يجلسْ ويَضَعْ طعامهما ويَنَمْ قليلًا ليَسْتريحَ من طول يومه الذي قضاه في العمل وهو يَسْرَحُ وراء الماشية إلى أن أظلم الليلُ، ولم يُرِحْ[1] عليهما كما يقول في إحدى الروايات.

الحال الثالثة: أنه لم يفعل شيئًا من ذلك وهو متألم مثلًا، أو فعله وقد فرضه عليه أحدٌ؛ وإنما فعله رجاءَ الرحمة.. رجاء أن يُبارك الله له.. رجاءَ أن يدفع اللهُ عنه.. فعله بعظيم ابتغاء وجه الله.

وانظر إلى أحوالنا اليوم: من الذي وقف بطعامه وعشائه لوالديه طُوالَ ليله واقفًا ينتظر استيقاظهما ليُطْعمهما؟! مَن الذي وقف لأهله وأقاربه أو رَحِمِه[2] وإخوانه، أو لدينه أو لشيء؟! وكأن هذا الحال هو الذي ينبغي أن يَسُودَ اليوم في كل تلك العلاقات بين أهل الإيمان وبعضهم البعض، لا أن يسود بينهم حالُ الذي يبحث عن نفسه وراحتها أولًا، ثم إنْ بَقِيَ وقتٌ أو مالٌ أو فراغٌ يُمكِنُ أن يقوم به بمصلحة لأحد؛ لوالديه أو إخوانه أو لدينه

(1) «لَمْ يُرِحْ عَلَيْهِمَا» أي: لم يرجع إليهم. انتهى من «دليل الفالحين».

(2) المقصود بالـ«رَحِم» هنا: القرابة وإن بَعُدَتْ. قاله المناوي رحمه الله في «الفيض»، وفي الحديث: «وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُرِ».

وإيمانه، لَفَعَلَ. لا؛ ينبغي لأهل الإيمان اليوم أن يقوموا بذلك وهم منشرحو الصَّدرِ، يعلمون أن في ذلك الرحمةَ والعناية من الله تعالى، وأن الله تعالى هو الذي وفَّقهم لذلك، فارتفعت درجاتهم ليكون عملهم هذا من الأعمال المقبولة عند الله تعالى.

انْتَظَرَ حتى برَق الفجر، والصبيةُ يتضاغون عند قدميه، وكان يمكن أن يُوقظهما أو أن يُطعم أهلَه أو أن يجلس كما أشرنا ولكنه لم يفعلْ. بلْ فَعَلَه كما ذكرنا وهو في غاية الانشراح والمحبة لهذا العمل، غير متأفِّف من القيام به ولا مُتَنكِّد. لم يقل مثلًا: لِمَ ناما مبكرًا هذه الليلة؟! ولم يَتَنَحْنَحْ، ولم يتعمد أن يرفع صوته مثلًا حتى يستيقظا... إلى آخر الأقوال والأفعال التي قد تصدر عن المؤمنين اليوم، إلا من رحم ربي. لذلك لم يفعل أيًّا من ذلك هذا الرجلُ الصالح، وإنما وقف إلى جوارهما ساكنًا، لا يريد أن يضايقهما في نومهما، ولا يريد في نفس الوقت أن يضيع ثوابَه، وإنما بقي واقفًا ينتظر ما شاء الله له أن ينتظر، فاستيقظا.

بر الوالدين سبيلٌ لنَيْل دعوة الوالدين المستجابة لولدِهما

وانظر إلى بركة الصلاح: هذان الأبوان كانا صالحين لا شك؛ لأن اللهَ تعالى لما كانا على حال صالح هيَّأ لهما هذا الولدَ الصالح كذلك. لَمَّا شربا غبوقهما فإنَّ أوَّلَ كلمةٍ متوقَّعةٍ يمكن أن يقولاها له وقد رأيا وَلَدَهما واقفًا طوال الليل وعلى يده القدح والصبية يتضاغون وكذا وكذا: «يا بُنَيَّ لِمَ لَمْ تجلس؟ لِمَ لَمْ تنم؟ لماذا تفعل ذلك في نفسك؟ عندما وَجَدْتَنا نائِمَيْن فلن يحدث شيء أن تنام ونشربه عند الصباح!...». لا يُعقل أنهما أخذا منه القدح وشربا وانتهى الأمر، لا.. وإنما لا شك أنهما لَمَّا شربا غبوقهما - هذان الأبوان الصالحان - ورأياه على هذه الحال الحسنة كان المتصَوَّر أن يَدْعُوَا له دعاءً شديدًا من قَلْبَيْهما إلى الله تعالى أن يُفَرِّج عنه، وألَّا يُوقِعه في الكُرُبات، وأن يدفع عنه البلاء، وأن يُسَدِّدَ خطاه وأن يحبب فيه خلقه... إلى آخر هذه الأدعية التي تصدر حال رضاهما. ووجد

هذا الولدُ الصالح أثَرَ هذه الأدعية عندما دعا في الغار لا شك، وأخذ هذا الولد الصالح من هذه الأدعية ما يكون زادَه إلى الله تعالى، ويكون كذلك رفعًا لدرجته، ودفعًا عنه لأي بلاء[1].

أهمية الإخلاص في العمل الصالح

يقول هذا الولدُ الصالح البارُّ بوالديه: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ». وهي المسألة التي ينبغي أن يتعلمها المؤمنون اليوم: «ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ»، وفي رواية: «رَجَاءَ رَحْمَتِكَ وَمَخَافَةَ عَذَابِكَ[2] فَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ شَيْئًا». لكن لا يستطيعون أن يخرجوا منه.

وقوله: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ». يعني: إخلاصًا لك؛ لا رياءَ في عملي هذا ولا سُمعة[3]، فعلتُ ذلك لوجهك الكريم ﷻ، لا طالبًا لمدحٍ أو مالٍ أو شيءٍ في الدنيا. لم يَطَّلِع على ذلك إلا أنتَ، ولا يَرَى ما في القلب إلا أنتَ، فإن كنتُ فعلتُ ذلك

---

(1) وبالإضافة إلى أن دعوة الوالد مستجابة لولده، فإن الحديث يشير إلى أن بِرَّ الوالدين من أسباب استجابة دعاء الولد البارِّ بهما؛ لذلك أخرج الإمام البخاري أحد روايات هذا الحديث في كتاب «الأدب» وعَنْوَن له: «باب: إجابة دعاء مَنْ بَرَّ والدَيْه».

(2) وفي رواية في الصحيح: «مِنْ خَشْيَتِكَ».

(3) «الرِّيَاءُ»: مُشْتَقٌّ مِنَ الرُّؤْيَةِ، وَالْمُرَاد بِهِ إِظْهَارُ الْعِبَادَةِ لِقَصْدِ رُؤْيَة النَّاس لَهَا فَيَحْمَدُوا صَاحِبَهَا، وَ«السُّمْعَةُ»: مُشْتَقَّةٌ مِنْ سَمِعَ، وَالْمُرَاد بِهَا نَحْوَ مَا فِي الرِّيَاء؛ لَكِنَّهَا تَتَعَلَّق بِحَاسَّةِ السَّمْع، وَالرِّيَاء بِحَاسَّةِ الْبَصَر. وَقَالَ الْغَزَالِيّ: «الْمَعْنَى طَلَبُ الْمَنْزِلَة فِي قُلُوب النَّاس بِأَنْ يُرِيَهُمُ الْخِصَالَ الْمَحْمُودَةَ. وَالْمُرَائِي هُوَ الْعَامِل». وَقَالَ ابْنُ عَبْد السَّلَام: «الرِّيَاءُ أَنْ يَعْمَل لِغَيْرِ الله، وَالسُّمْعَة أَنْ يُخْفِيَ عَمَلَهُ لله، ثُمَّ يُحَدِّثَ بِهِ النَّاسَ». انتهى - بتصرّفٍ واختصار - من «فتح الباري»، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة. وعن جُنْدَبٍ رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ». أخرجه البخاريُّ (6499)، ومسلمٌ بنحوه (2987).

ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه. فانفرجتِ الصخرةُ غير أنهم لا يستطيعون أن يخرجوا[1].

وهذا - أي ما سبق - يبين لنا ذلك الحال وهو: هل يدفعُ المؤمنون اليوم بالإخلاص؟ هل فعلنا الأعمال الصالحة التي يُدفَع بها؟ بل هل دفعنا أصلًا؟ نحن لا ندفع ولا نصُدُّ ولا نردُّ، وننتظر نزول البلاء علينا، ونحن هكذا سامدون[2] لا نتحرك! وإن تحرَّكْنا تحركْنا في الاتجاه الخاطئ، لا في اتجاه الله تعالى الذي قد أنزل علينا ذلك ليرانا ونحن نحاول رفعَه.

هذا هو الأمر الأول: هل أعد كلٌّ منا من الأعمال الصالحة التي قد أخلص فيها لله تعالى ويندفع بها ذلك البلاءُ؟ إن لم يكن كذلك فلا بد أن يَنْوِيَ كلُّ أحدٍ منا أن يبدأ في هذا الإعداد ليرتفع ذلك البلاء، وليتوقَّى ما يمكن أن يقع من بلاء جديد. نوى ذلك اليومَ تفريجَ هذه الكروب التي نزلت وحَلَّتْ بهذا اللجوء إلى الله؛ بتلك الأعمال التي يرى فيها أنها قد فعلها لله، وفَعَلَها على أقصى ما يُمْكِنُ أن تكون من رضا الله تعالى، وفعلها على أقصى ما تكون من الإخلاص لله تعالى.

---

(1) فائدة: أشار قولُ كلِّ واحدٍ فيهم: «اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْت ذَلِكَ ابْتِغَاء وَجْهِكَ» إلى أنّ كلّ أَحَدٍ مِنْهُمْ لَمْ يَعْتَقِد فِي عَمَله الْإِخْلَاصَ، بَلْ أَحَالَ أَمْره إِلَى الله، فَإِذَا لَمْ يَجْزِمُوا بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ مَعَ كَوْنه أَحْسَن أَعْمَالهمْ، فَغَيْره أَوْلَى، فَيُسْتَفَاد مِنْهُ أَنَّ الَّذِي يَصْلُح فِي مِثْل هَذَا التوسّلِ إلى الله تعالى: أَنْ يَعْتَقِد الشَّخْصُ تَقْصِيرَه فِي نَفْسِه، وَيُسِيء الظَّنّ بِهَا، وَيَبْحَث عَلَى كُلّ وَاحِد مِنْ عَمَلِهِ يَظُنّ أَنَّهُ أَخْلَصَ فِيهِ، فَيُفَوِّض أَمْره إِلَى الله، وَيُعَلِّق الدُّعَاء عَلَى عِلْم الله بِهِ، فَحِينَئِذٍ يَكُون إِذَا دَعَا رَاجِيًا لِلْإِجَابَةِ، خَائِفًا مِنْ الرَّدّ. فَإِنْ لَمْ يَغْلِب عَلَى ظَنّه إِخْلَاصُه - وَلَوْ فِي عَمَل وَاحِد! - فَلْيَقِفْ عِنْد حَدّه، وَيَسْتَحْيِ أَنْ يَسْأَل اللهَ بِعَمَلٍ لَيْسَ بِخَالِصٍ. انظر - بتصرُّفٍ: «فتح الباري»، شرح حديث رقم (3465).

(2) و«السُّمُود»: اللَّهْوُ، «وقد سَمَدَ يَسْمُدُ»: إذا لَهَا وغَفَلَ وَذَهَبَ عن الشيءِ، و«سَمَّده تَسْمِيدًا»: أَلْهَاه. وبه فَسَّرَ بعضُ العلماء آية سورة النجم: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: 59 - 61]. وقال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «سامِدُون» مُستكبِرون. وقال اللَّيْث: «سامِدُون» ساهُون. وقيل غير ذلك. انظر - بتصرُّفٍ كثيرٍ واختصارٍ: مُعْجَم «تاج العروس»، مادة: [س م د].

وذلك هو مطلوبُ اليومِ، فمَنْ كان لا يصوم مثلًا إلَّا الاثنين والخميسَ فله أن يَسْرُدَ[1] يَسْرُدَ[1] الصيام كما كان الصالحون من قبل يفعلون ذلك، إنْ نزل بهم البلاء سَرَدوا الصوم، يعني: نَوَوُا الصومَ دومًا حتى يرتفع البلاءُ، أو نَوَوُا القيامَ دومًا حتى يرتفع البلاء، أو نَوَوْا إدمانَ قراءةِ القرآن حتى يرتفع البلاء، أو أن يختموا القرآن في يوم وليلة، أو في يومين، أو في ثلاثة أيام طالما البلاءُ لم يزل نازلًا، جاز لهم كلُّ ذلك، وجاز لهم أن يُكثروا من الدعاء والتوبة.. أن يتفقَّدوا أهلَهم وآباءهم وأرحامهم وإخوانهم.. أن يتفقدوا أمورَ الدعوة إلى الله تعالى المقصرِّين فيها، وأمورَ العلم النافع والعمل الصالح، والسَّيْرِ في مصالح المسلمين.. أن يكون لهم عملٌ خَبِيءٌ بينهم وبين ربِّهم، فإذا دَعَوْهُ استجاب لهم جل وعلا.

عندما هرب الحسن البصري رحمه الله تعالى[2] من الحجَّاج، دخل بيتًا فقال له صاحب البيت: «أليس بينك وبين الله تعالى عملٌ إذا دعوتَه به استجاب لك؟!». فدعا الحسنُ، فدخل والشرطةُ وراءَه، بحثوا عنه فلم يجدوه في البيت! ثم رجعوا للحجاج فقال لهم: «قد كان في البيت ولكن طَمَس اللهُ على أعينكم».

نعم! هي قصة صحيحة، ويشهد لها حديث النبي أن يكون له خبيءٌ من عمل صالح[3]، إذا دعا الله به استجاب الله له. وهذه الخبايا من الأعمال الصالحة ينبغي أن يتفكر يتفكر فيها الناس اليوم؛ أن يتفكروا فيما قصَّروا فيه فيستدركوه، وأن يتفكروا فيما أذنبوا فيه فيتوبوا عنه، وأن يتفكروا في أعمال صالحة لم يفعلوها ليفعلوها، وأن يتفكروا في أن يحيطوا كلَّ ذلك بالإخلاص، ليكون ذلك الإخلاص قائدَهم إلى الله تعالى. إذا لم يفعل

---

(1) «سَرَد الصيام» أي: تابَعه. انتظر: «مختار الصحاح»، مادة: [س ر د].

(2) انظر ترجمته في: «الفتوحات الإلهية شرح الأسماء الحسنى للذات العلية»، ص36، المجلد الأول، ط 1.

(3) سيأتي ذكر هذا الحديث الشريف مع مزيد تفصيلٍ في: الفصل الرابع، الصفة الثانية من صفات قبول العمل الصالح.

المؤمنون ذلك ولم يَنْوُوه اليومَ فلا رافعَ لما نزل عليهم من البلاء ولا يمكن أن يرتفع، فهو الذي أنزله ﷻ ويرى البلاءَ النازل ويرى أهلَه وما هم فيه من البلاء، وينظر إليهم وهو يَعِظُهم ويُلهمهم كيف يقومون برفع هذا البلاء، ومع ذلك لا يدفعون بشيء، كأنهم يحبون البلاء ويحبون رَفْعَ راية الكفر بأن يرتفع عليهم الظلمة والكفرة والفسقة في كل مكان! فالمسلمون اليوم – فقط – يشاهدون: لا يصومون، ولا يُصلُّون، ولا يتعاطفون بينهم ولا يتصالحون، ولا يَصدُّون ولا يَدْفعون، ولا يقومون بالليل لله تعالى ولا يذكرون ولا يُخْلِصون في دينهم وعَمَلهم ودعوتهم، ولا يتعلمون علمًا نافعًا يقومون به يكون به الصَّدُّ والرَّفْع، لا تلك الطقوس التي يُؤدون! وزاد على ذلك انشغالهم بالدنيا، وكلما ازداد انشغالُهم بها زاد ضِيقُ الصخرة عليهم، كأنهم يَزيدون دَفْعَ الصخرة في فَمِ الغار حتى لا يخرجوا! إنهم لا يُجِيدُون أن يخرجوا من فم الغار؛ لذلك يتوسَّلون إلى الله تعالى بالشِّقاق والنِّفاق وسُوء الإخلاق، يتوسلون إليه بالتَّقصير والتَّفْريط، يتوسَّلون إليه حتى يزيد عليهم إحكامَ الصخرة وحتى تزداد عليهم ثباتًا لا يتمكنون من الخروج من الغار ويبقون فيه إلى يوم يبعثون!! نعوذ بالله من أن نُذَكر به وننساه.

فوائـــــــد

الفائدة الأولى:

هذا الحديث يُبين أحدَ جوانب حَلِّ هذه المشكلة التي أَحْدَقَتْ بالمسلمين - وهي ازدياد البلاء النازل على المؤمنين اليوم، وازدياد محاربة الدينِ وأهلِه واضطهادهم - وهو في قوله ﷺ على لسان هؤلاء الثلاثة: «لَا يُنْجِيكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ».

وهي القضية التي ينبغي على كل أحدٍ أن تكون همَّه ومسئوليتَه؛ ليكون له عمل صالح يداوم عليه أو يُحَبِّبُه بينه وبين ربه، ويكون عملًا يستحق أن يدعو الله تعالى به لِيُفَرِّج عنَّا ما نحن فيه كما جاء في ألفاظ هذا الحديث المبارك المُوحِي من أحاديث النبي ﷺ.

هذا الأمر الأول: «لَا يُنْجِيكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ».

الفائدة الثانية:

تحمُّل هذه المسئولية مع الهمِّ والشفقة والحُزْن على هذا الحال[1]؛ ليخرج المؤمنون اليوم من هذه الدَّفْنة، يعني: من هذا الغار الذي أصبحَ في لحظةٍ واحدةٍ قبرَهم الذي لن يخرجوا منه إلى يوم القيامة.

---

(1) والهَمُّ والشفقةُ والحُزنُ على حال المؤمنين المفرِّطين أو على عدم إيمان الناس عامة من الصفات التي ينبغي أن تتوفر في أي داعٍ إلى الله تعالى حتى يثمر جهده، ولقد كانت هذه الصفات متوافرة على أعلى درجات الكمال في النبي المصطفى ﷺ، حتى قال الله تعالى له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقد استفاض المؤلف في شرح تلك المعاني وما يتعلَّق بها من آياتٍ قرآنيةٍ في سلسلة صوتية بعنوان: «لعلَّك باخعٌ نفسك ألَّا يكونوا مؤمنين»، وهي متوفرة على مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت). فارجع إليها للإفادة.

الفائدة الثالثة:

أن ينظر المرء في أعماله التي هو فيها الآن لِيَرى: هل له عملٌ فيما بينه وبين ربِّه يَصْلُح أن يدعو اللهَ تعالى به لِيُفَرِّج عنا ما نحن فيه؟ وهذا هو المَحَكُّ والمعيارُ الذي يَزِنُ به المرءُ نفسَه وعملَه: هل ساهم بجزء في الدفع عن الأُمَّة؟ وهل له قيمة في تحمل تلك المسئولية، أو أنه في درجةٍ لا يُدْفع عن الأُمَّة بسببِه؟

ما زال البابُ مفتوحًا، ومَن لم يكن له ذلك العملُ الصالح فإنه ينبغي أن يَدْعُوَ اللهَ تعالى أولًا أن يفتح عليه بعملٍ صالحٍ، ليكون ذلك الدعاءُ الأولُ وسيلةً لِيدعوَ الله تعالى به ثانيًا لأنْ يرفع الله تعالى عنه وعنَّا وعن المسلمين ما نزل بنا.

ما زال في الوقت فُرجةٌ، وما زال في الصحة مُتَّسَع، وما زال في الجُهد بقية يستطيع بها المرء أن يبذل لِيُرِيَ ربَّه ﷻ أنه قد تحمَّل بجزءٍ من مسئوليته في سبيل دينه، وأنه على استعدادٍ لأنْ يُضحِّي بنفسه وماله في سبيل الله تعالى.

الفصل الثاني

خشيةُ الله تعالى

والعِفَّةُ والانكِفافُ عن المُحرَّمات مع القُدْرة عليها

والتوبةُ إلى الله تعالى وفَكُّ الكُرُبات عن المسلمين

دَفْعُ البلاء بالله تعالى

قد ذكرنا في الفصل الأول أنه بعد ما انفرجت الصخرة قليلًا بعد دعاء الرجل الأول، فإن المنطق يقول إنه لا ريب أنهم حاولوا أن يستكملوا انفراج الصخرة بأن يدفعوا الصخرة بأيديهم، وها هم يدفعون الصخرة فلا تندفعُ! هي مأمورةٌ بأمر الله تعالى، وهذا البلاءُ النازل هو نازلٌ بأمر الله تعالى؛ ليستكملوا ما يدفعون به هذا البلاء، فإنْ لم يستكملوا هذا الدفعَ لن يرتفع البلاءُ؛ هذا هو المعنى إذن. لذلك بعد أن دفعوا الصخرة فلم تندفع، علموا أن الله تعالى ما زال ينتظر أن يسمع دعاءهم، وأن يَرى إخلاصهم بما قدَّموا من عملٍ صالحٍ قد قَبِله الله تعالى مخلصين له فيه، وليكون كذلك تعليمًا للمؤمنين، فرجعوا كما كانوا مساكينَ ليستكملوا الدعاء، وهو ساعتها الذي ليس بأيديهم غيره.

إن الذي ينبغي أن يتعلمه المرءُ، هو أن دفع الصخرة لم يكن بقوتهم وإنما بالله تعالى، وأننا مطالبون اليوم بأن ندفع بالله تعالى.. أن ندفع بالعمل الصالح.. أن ندفع بالتوسُّل إلى الله تعالى بالإخلاص في هذا العمل.. أن ندفع بأحسن ما يمكن أن يكون من عملٍ يُدْفع به؛ لأن كل واحدٍ منهم لم يتخيَّرْ أيَّ عملٍ يدعو الله تعالى به، وإنما تخير أفضل أعماله التي يمكن أن يستجيب الله له بها.

عَلِمْتَ إذن هذا المعنى: أنه ينبغي أن يدفع المرء بالله تعالى، وقد رأى هؤلاء الثلاثة عاقبته؛ قد انفرجت الصخرة فأتوا ليدفعوا فأَبَتِ الصخرةُ، كأنها تقول لهم: «لا؛ ارجعوا.. البلاء لَمَّا يرتفعْ، باقٍ عليكم دفعٌ كبير تدفعون به هذا البلاء، وعملٌ عظيم تتوسَّلون به إلى الله لأنه لن ينجِّي إلا هو ﷻ».

رجعوا ليدفعوا مرة أخرى بالله تعالى. وانظر إلى الدفع الجديد الذي دفعوا به الصخرةَ هذه المرَّة:

قال الثاني في أحد روايات الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ - أَوْ كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ - وَأَنَّنِي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، ثُمَّ إِنَّهَا أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ». يعني: جاءتها سنوات الفقر الجداب[1].. جاءها ونزل عليها البلاءُ والشِّدَّةُ امتحانًا من الله لهذه المسكينة، «فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا مِائَةَ وَعِشْرِينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ». وصل بها الحال هذه المرأة الصالحة المسكينة إلى ذلك[2]. «فَلَمَّا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ لَهَا المَالَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا». أي: تركتُ لها الذهبَ الذي أعطيتها. «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهُ». انفرجت الصخرة إلى ثُلُثَيْها كما في الرواية الأخرى.

ونحاول فيما يلي أن نُوضِّحَ حالَ هذا الرجل الثاني الذي دَفَعَ به، لنرى ما ينبغي أن يتعلَّمه المؤمنون من أعمالٍ يُخلصون فيها لله تعالى، تكون سببًا لدفع البلاء ورفع الخَطْب وتكون سببًا لتفريج الكُرَب الواقعة.

---

(1) «جَدِبَ» المكانُ جَدْبًا: يَبِسَ لاحتباس الماء عنه. «أَجْدَبَ» المكانُ: صار جَدْبًا، ويقال: «أَجْدَبَتِ السَّنةُ»: صار بها جَدْبٌ. انظر «المعجم الوسيط»، مادة: [ج د ب].

(2) وفي رواية النعمان بن بشير رضي الله عنهما ما يُشير إلى صلاحها؛ حيثُ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا مِنْ مَعْرُوفه في سنة القحط، وَيَأْبَى عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ نَفْسِهَا. وسياقُ الحديث عنده: «قَالَ الآخَرُ: قَدْ عَمِلْتُ حَسَنَةً مَرَّةً: كَانَ لِي فَضْلٌ، فَأَصَابَتِ النَّاسَ شِدَّةٌ؛ فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ تَطْلُبُ مِنِّي مَعْرُوفًا - قَالَ - فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ، فَأَبَتْ عَلَيَّ، فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ فَذَكَّرْتُنِي بِاللهِ، فَأَبَيْتُ عَلَيْهَا، وَقُلْتُ: لَا وَاللهِ مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ، فَأَبَتْ عَلَيَّ، وَذَهَبَتْ فَذَكَرَتْ لِزَوْجِهَا، فَقَالَ لَهَا: أَعْطِهِ نَفْسَكِ وَأَغْنِي عِيَالَكِ، فَرَجَعَتْ إِلَيَّ فَنَاشَدْتُنِي بِاللهِ فَأَبَيْتُ عَلَيْهَا، وَقُلْتُ: وَاللهِ مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ. فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَسْلَمَتْ إِلَيَّ نَفْسَهَا...» ثم ساق الحديث. وقد سبق تخريجه في الفصل الأول، وأنه أخرجه الإمام أحمدُ، والطبراني في «الدعاء»، وحسّنه الحافظ في «الفتح». ولكنها - بالرغم من صلاحها ذلك - قد أخطأتْ عندما سلَّمتْ نفسَها في آخر الأمر وكان يجب عليها ألَّا تَضعُف.

العِفَّةُ والخوفُ من الله تعالى

«اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ».

يقول: «فَلَمَّا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ الله اتَّقِ الله». أي: خَفِ الله، «وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ[1] إِلَّا بِحَقِّهِ». وحَقُّهُ الزواج، وليس حقُّهُ الزنَى، أي: لا تَفضَّه إلا بما يُرضي اللهَ تعالى من زواجٍ.

قال: «فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»، لا شك أن الحبَّ الأول الذي ادَّعَى لم يكن لله تعالى، وإنما كان حبَّ الشهوة، حُبَّ أن يقضي منها وَطَرَه[2]، وهو ما يَحْدث عندما تطغى الشهوات على الناس اليوم أو كلَّ يوم، والحب الثاني هو أنها قد أحبها لعفَّتها ولكرامتها ولخوفها من الله. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: لعله أحبها بما كانت السبب فيه أن يتوب إلى الله، وأن يرجع إليه. تغيرت إذن في قلبه هذه العواطفُ التي حرَّكته إلى المحرَّم، فإذا بنفس العاطفة - أي عاطفة المحبة - هي التي حركته إلى الخير. فكانت العاطفة الأولى عاطفةً سيئة شيطانية، وكانت العاطفة الثانية نتيجةً للخوف من الله تعالى الذي تولَّد في قلبه من موعظة المرأة المسكينة.

يقول: «فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا». أي الدنانير التي أعطاها إياها. «اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ». وهذا هو

---

(1) وفَضُّ الخاتَمِ هنا كناية عن الوطء؛ ذكره الإمام المنذري في «الترغيب والترهيب». وذكر بعض العلماء أنه المراد به هنا فَضُّ البكارة، ولكن هذا لا يستقيم مع رواية النعمان بن بشير ﷺ - عند أحمد والطبراني في «الدعاء» وحسَّن إسنادَها الحافظُ - أنها كانت متزوجة ولها عيال؛ لذلك فالمعنى الأول هو المعتمَد. وكَوْنُها متزوجةً يُفسِّر أيضًا لماذا لجأ هذا الرجلُ إلى المراودة بدلًا من زواجها.

(2) «الوَطَر»: كلُّ حاجةٍ كان لصاحبها فيها هِمَّةٌ؛ فهي وَطَرُه. وجَمْع «الوَطَرِ»: أَوْطارٌ. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. انظر - بتصرّفٍ كثيرٍ: «لسان العرب»، مادة: [و ط ر].

الفيصل: كان الحب الأول للشهوة، ويريد أن يأتيها وأن يدفع في هذه الشهوات ما يقوم به ويحصله بها، إذا بالحب الثاني هو خوف الله، وقَمْع[1] النفس عن المحرَّمات، والانخلاع عن تلك الشهوات والنزوات، وعلاوةً على ذلك أن يترك هذا الذهبَ كله لله تعالى. هذا الذهب الذي كان سيُصِيبُ بسببِه كبيرةً من الكبائر، فإذا به سببٌ ليُحَصِّل به الحَسنةَ، ترك ذلك كله خوفًا من ربه، ترك ذلك كله من خشية الله تعالى، ترك ذلك كلَّه لعلَّ اللهَ أن يتوب عليه.. أن يغفر له.. أن يتجاوز عنه. ترك ذلك كله ليكون أهلًا أن تكون توبته هذه مقبولةً، أو أن يكون هو مقبولًا بهذه التوبة عند الله تعالى.

«اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ». انظر: في اللحظة التي تغير حاله من الشهوة المحرمة إلى الانصراف عنها، لم يكن هناك ما يمنعه من إكمال شهوته ودفعِها إلَّا خوفُ الله تعالى.. إلا استحياؤُه من ربه، إلا تأثيرُ هذه الموعظة في قلبه[2]، ثم زاد على ذلك: المجاهدةُ لنفسه، والخروجُ عما كان فيه من ظُلمٍ بأن ترك المالَ كلَّه لله تعالى، «إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ» أو «فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ» كما في الرواية الثانية، «فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ شَيْئًا، لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهُ».

---

(1) «القَمْعُ»: مصدر «قَمَعَ» الرَّجُلَ يَقْمَعُه قَمْعًا، وأَقْمَعَه فانْقَمَعَ: قَهَرَه وأذَلَّهُ. وأيضًا «قَمَعَ فُلانًا»: صَرَفَه عَمّا يُرِيدُ. و«المِقْمَعَةُ»: العَمُودُ مِن حَدِيدٍ يُضْرَبُ بِهِ الرَّأسُ، أوْ كالمِحْجَنِ يُضْرَبُ بِهِ رَأسُ الفِيلِ، جمعها «مَقَامِعُ»: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: 21]. انظر – بتصرّفٍ كثيرٍ: «لِسان العرب» و «تاج العروس» و«أساس البلاغة»، مادة: [ق م ع].

(2) وانظر إلى رواية أخرى للحديث؛ يقول فيها ذلك الرجل: «فَلَمَّا كَشَفْتَهَا ارْتَعَدَتْ مِنْ تَحْتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكِ؟! قَالَتْ: أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَقُلْتُ: خِفْتِيهِ فِي الشِّدَّةِ وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرَّخَاءِ!! فَتَرَكْتُهَا». وتلك الرواية أخرجها الطبراني عن النعمان بن بشير وحسنها الحافظ كما أشرنا في الفصل الأول.

الانكفاف عن المحرمات

ويتعلم المرء هذه المسألة ويدعو الله بها، وهي مسألة التعفف عن المحرمات، والانكفاف عنها خوفًا من الله تعالى وخشيةً منه، ومن اطِّلاعه عليها، وأن يؤكد هذا الخوف من الله بما يُتبعه من توبة وعملٍ صالحٍ؛ من صدقة وغيرها لله جلَّ وعلا. فإذا تَرَكَ المرءُ هذه المحرَّمات كلَّها التي يقدر عليها لله تعالى، ثم تصدَّق بعدها بماله جهادًا لنفسه على ما فعل، يُوشِك أن يكون ذلك من الأعمال المقبولة بينه وبين ربِّه؛ خاصةً إذا كان هذا العمل لم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ إلا صاحبه فقط وربُّه جلَّ وعلا المُطلِعُ على كل شيء.

فيتعلم المرءُ حينئذ هذه المعاني: كيف يَنْكفُّ عن المحرمات؟ يوشك المرء أن يقع في المحرم؛ في النظر المحرم مثلًا، أو في السماع المحرم، يختلس النظرات أو الكلام أو غيره، يظن أن الناس لا تراه، فإذا به ينصرف عن ذلك كله إلى رؤية الله له واطلاع الله عليه، ويصرف قلبه وبصره عن ذلك المحرم، وهكذا كل المحرمات الواقعة تحت تصرف الجوارح، كاللسان في الغِيبة والنَّميمة؛ تُراه لو كان مغتابُهُ هذا موجودًا لَمَا اغتابه، ولو كان الذي يَنِمُّ عليه موجودًا ما نمَّ عليه، تُراك تخافُ منه، وبينك وبين الله لا تَستحيي أنْ تفعل ذلك؟!

كانت هذه الشهوة في هذا الحديث من أعظم الشهوات التي يُبيِّن بها النبيُّ للمرء المؤمن كيف ينكفُّ عمَّا دونها من المحرمات. قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَضْمَنُ لَهُ الجَنَّةَ»**[1].

---

(1) أخرجه الإمام البخاري (6474) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ مرفوعًا. وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ». أخرجه البخاريُّ (6475)، ومسلمٌ (74) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، وقال ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ. وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟». أخرجه الترمذي (2616) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ =

يعني: مَن يضمن لسانَه[1] وفَرْجَه، فالنبيُّ ﷺ ضامنٌ له الجنة، فهذا الحال إذن مما يوضح للمرء: كيف يكفُّ جوارِحَه عن هذه المحرمات؛ كيف يَكفُّ بصرَه ولسانه وسمعه ويدَه ورِجلَه فلا يتحرك شيء من ذلك إلا لله تعالى مخلصًا له، إنْ تكلَّمَ فله.. وإن سكت فله.. وإن مشى فله.. وإن قعد فله ﷻ، لا يَحْمله على هذه الشهوات محبةُ النفس وميلها إلى هذه النزوات، لا يحمله عليها نسيانُه لربِّه، وغفلتُه عن آخرته، ولقاء الله له ﷻ وحسابه، فكانت هذه القصة إذن زادًا للمؤمنين ليتحركوا في حفظ الجوارح من كَفِّها عن المُحرَّمات، هو يقدر عليها، لأنها - أي تلك الجوارح - هي التي تعصي الله تعالى وتقوم بهذه الآفات والجنايات.

والفائدة التالية: ألا يُوقع المرءُ نفسه في المحرَّمات ابتداءً[2].

عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ». أخرجه البخاريُّ (6478).

(1) «لَحْيَيْهِ» - بِفَتْحِ اللَّامِ- تَثْنِيَةُ لَحْيٍ، وهُمَا العَظْمَانِ اللَّذَانِ يَنْبُتُ عَلَيْهِمَا الأَسْنَانُ عُلْوًا وَسُفْلًا، أشار ﷺ ما بينهما إلى اللسان كما أشرنا أعلاه. قَالَ الطِّيبِيُّ: وَعَنْ بَعْضِهِمْ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي لِسَانَهُ...» أَيْ: شَرَّ لِسَانِهِ وَبَوَادِرَهُ، وَحَفِظَهُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمَا لَا يَعْنِيهِ وَيَضُرُّهُ مِمَّا يُوجِبُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ، وَفَرْجَهُ بِأَنْ يَصُونَهُ، أَضْمَنُ لَهُ دُخُولَ الجَنَّةِ. انظر- بتصرف واختصار: «مرقاة المفاتيح» للملا علي القاري، (7/ 3025)، طبعة دار الفكر، 1422هـ. وللسان آفاتٌ كثيرة ينبغي أن يحفظ العبدُ منها لسانَه؛ منها: «الكلامُ فيما لا يعني، وفضولُ الكلام، والخوضُ في الباطل، والمِراءُ، والجدالُ، والخصومةُ، والتَّقعُّر في الكلام بالتشدّقِ وتكلُّفِ السَّجْع والفصاحة والتصنّع فيه، والفُحشُ والسَّبُّ وبذاءة اللسان، واللعنُ إما لحيوان أو جماد أو إنسان، والغناءُ، والسخريةُ والاستهزاء بالآخرين، وإفشاءُ السر، والوَعْدُ الكاذب، والكذبُ في القول واليمين، والغِيبَةُ، والنَّميمةُ، وذو اللسانَيْنِ الذي يتردّد بين المتعادِيَيْنِ فيُكلِّم كلَّ واحدٍ بكلامٍ يُوافِقُه». انتهى مُلخَّصًا وبتصرفٍ من «الإحياء».

(2) فعدمُ الوقوع في المحرّمات ابتداءً أفضل من الكفّ عنها بعد القدرة عليها والهمّ بها، ويدلّ على ذلك حديثُ النبيِّ ﷺ؛ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ فِي خَلَاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسْجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا قَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ». أخرجه البخاري (6806) - واللفظُ له =

الوقوف عند أوامر الله تعالى ونواهيه والحياء منه

والفائدة التالية: أن يكون المرء وقّافًا عند أمر الله تعالى[1]؛ قالت له: «اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ». قال: «فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا»، لم يفعل شيئًا، والفاء هنا في قوله: «فَانْصَرَفْتُ» للتعقيب[2]. قالت: «اتَّقِ اللهَ».. فقام المسكين يرتعدُ من خشية الله تعالى![3]. ونحن - في هذه الأيام التي ينبغي أن ندفع فيها البلاءَ، ونرفع عن أنفسنا تلك الصخرات التي سدت علينا كلَّ الطرق - إذا قيل لأحدنا: «اتق اللهَ.. وحرامٌ عليك.. واخْشَ اللهَ، وعقابَه،

- ومسلمٌ (1031) في صحيحيهما من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مرفوعًا. فصاحبُ الغار لمَّا كفَّ عن المحرمات بعد الهمِّ بها والقدرة عليها استجاب له اللهُ الدعاءَ ورفَع عنه الصخرةَ، أمّا أحد السبعة فلم يقع في المحرّمات ابتداءً - مع توفُّر الدواعي مِنْ كَوْنِ المرأة ذات جمالٍ ومنصبٍ وهي راغبةٌ - فاختاره اللهُ من هؤلاء السبعة الذين يظلُّهم الله تعالى في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظِلُّه جلّ وعلا، والله تعالى أعلم.

(1) «وقّاف» يعني: كثير الوقوف. و«والوقوف عند أمر الله تعالى» كنايةٌ عن امتثال المرءِ لهذا الأمر، والاهتمام به، وعدم تجاوزه. وكان ذلك دأب الصحابة رضي الله عنهم، لا سيما الصحابي الجليل عمر بن الخطّاب ﷺ كما ورد في الحديث: «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ؛ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي! هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَتَسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ لِعُيَيْنَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ! وَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ، وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ! فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ. فَقَالَ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ. فَوَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ». أخرجه الإمامُ البخاريُّ (7286) عن ابن عبّاس رضي الله عنهما موقوفًا عليه.

(2) الفاء هنا للتعقيب، يعني: تفيد العطف مع الترتيب بدون انفصال؛ تقول: «دخل فلانٌ ففلانٌ»، أي: دخل الثاني بعد الأول مباشرةً بلا فاصل وَقْتِي، عكس «ثُم» التي تفيد العطف مع الترتيب بانفصال؛ تقول: «دخل فلانٌ ثم فلانٌ» إذا دخل بعده بعد فترة من الزمن.

(3) وفي رواية النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنهما: «فَلَمَّا تَكَشَّفَتْهَا وَهَمَمْتُ بِهَا ارْتَعَدَتْ مِنْ تَحْتِي! فَقُلْتُ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ. قُلْتُ لَهَا: خِفْتِيهِ فِي الشِّدَّةِ، وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرَّخَاءِ!! فَتَرَكْتُهَا». سبق تخريجه في الفصل الأول: أخرجه الإمام أحمدُ، والطبراني في «الدعاء»، وحسّنه الحافظ.

وسرعةَ إقبال الآخرة، والموت، والحسابَ، وكذا، وكذا...». فلا حياةَ لَمَنْ تُنادي! وكأنك لا تُذكِّره بربِّه القادرِ عليه أن يَخْسِف به، كما ذكر المولى جلَّ وعلا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 97-99].

«اتَّقِ اللهَ». يعني: خَفِ اللهَ.. خَفْ مِن ربك.. ضَعْ بينكَ وبين ربِّك وقايةً تمنعك ممَّا تخاف منه عند الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ لئلَّا ينزلَ عليك عقابُه أو ينتظرَكَ يوم القيامة منه العذاب الأليم، فيحملك ذلك على الاستحياء منه والكَفِّ عن تلك المُحرَّمات[1].

---

(1) «الحَيَاءُ» فِي اللُّغَة أصْلُه من «الحياة»، وهو تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يعتري الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْف مَا يُعَاب بِهِ، وَفِي الشَّرْع: خُلُقٌ يَبْعَث عَلَى اجْتِنَاب الْقَبِيح وَيَمْنَع مِنْ التَّقْصِير فِي حَقّ ذِي الْحَقّ. والحَيَاءُ من الله تعالى مِنْ أَوَّلِ مَدَارِجِ أَهْلِ الْخُصُوصِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ مُلَاحَظَةِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ حَاضِرًا مَعَهُمْ، وَعَلَيْهِ بِنَاءُ سُلُوكِهِمْ. وهو – أي الحياءُ من الله تعالى – حَالَةٌ حَاصِلَةٌ مِنِ امْتِزَاجِ تَّعْظِيمِ الله تعالى بِالْمَوَدَّةِ له. فَإِذَا افْتَرَنَا تَوَلَّدَ بَيْنَهُمَا الْحَيَاءُ. وأيضًا يكون الحياءُ مِنْ مُشَاهَدَةِ نِعَمِ الله تعالى على العبد، وَرُؤْيَةِ تقْصِير العبدِ له جلّ وعلا. وللحياء أسبابٌ أخرى ذكرها الإمام ابن القيم في «مدارج السالكين»، فارجع إليها للإفادة. وقد رغَّبَ الشارع الحكيمُ في الحياء، فقال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلاَمِ الْحَيَاءُ». أخرجه ابن ماجه (4181) وصحّحه الألباني في «الصحيحة» بمجموع طُرقه (940)، والمعنَى: أنّ الغالبَ على أهل كل دين سجيَّةٌ سوى الحياء، والغالب على أهل ديننا الحياء، لأنه مُتمِّمٌ لمكارم الخلاق، وإنما بُعِث المصطفى ﷺ لإتمامها، ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها؛ وهو الحياء. وقال ﷺ: «الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ». أخرجه البخاريُّ (6117) ومسلمٌ (60) في صحيحَيْهما، وَفِي الحديث المرفوع: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ». أخرجه البخاريُّ (9) ومسلمٌ (57) في صحيحَيْهما. وإِنَّمَا أَفْرَدَ الحديثُ «الحياءَ» بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ كَالدَّاعِي إِلَى بَاقِي شُعَب الإيمان؛ إِذْ الْحَيِيُّ يَخَاف فَضِيحَة الدُّنْيَا وَالْآخِرَة فَيَأْتَمِر وَيَنْزَجِر؛ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ. قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ الله: إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لله. قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الإِسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ». أخرجه الترمذيُّ واستغربه (2458)، وحسّن إسناده النوويُّ في «المجموع» (5/ 105 ط. دار الفكر). وفي المقابل فقد رهَّب الشَّرْعُ من ترك الحياء، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ». أخرجه البخاريُّ (6120). فقوله: «إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» للتهديد من قبيل قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، أي: اصنعْ ما شِئتَ فسوف تَرَى غيَّه، كأنه يقول: إذا أبيتَ لُزومَ =

التوبةُ النَّصُوح

فلتكن هذه القصةُ الحقيقية التي وقعت إذن نِبْراسًا[1] للمؤمنين اليوم لأن يتوبوا إلى الله من كل المحرمات، وأن يؤكِّدوا هذه التوبة لله تعالى بما قدموا من أعمال صالحة. وقد علمنا التوبة وأركانها وأهميتها ومنزلتها ولزومها على تتابع الأزمان وعلى الفور.

بعد هذه التوبة يجب أن يتحقق المرء بحقيقة التوبة النصوح[2]، فليس كل مَنْ قال: «تُبْتُ إلى الله» فقد تاب، ولكن للتوبة حقيقتها التي ينبغي أن يبادر المرء إلى إظهار آثارها

الحياءِ فأنتَ أهْلٌ لأن يُقال لك افعلْ ما شئتَ، وتُبعَث عليه، ويتَبين لك فسادُ حالك ثم تُجازى به. أو هو – أي قوله: «إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» – أمرٌ بمعنى الخبر؛ أي: إذا لم تخْشَ من العار عملتَ ما شئتَ، ولم يردَعْك عن مواقعة المحرَّمات رادعٌ، وسيكافئك اللهُ على فِعْلك ويجازيك على عدم مبالاتك بما حرّمه عليك. وهذا توبيخ شديد؛ فإنّ مَن لم يُعظِّم ربَّه فليس من الإيمان في شيء، وقيل غير ذلك. انظر – بتصرّف كثيرٍ: «فيض القدير» للمناوي، و«عون المعبود» لشمس الحق العظيم آبادي، و«مدارج السالكين» لابن القيم – رحمهم الله تعالى.

(1) «النِّبْراسُ» هنا هو: المِصْباح والسِّراج؛ ثُلاثيٌّ مُشتَقٌّ من البرسِ؛ الذي هو القطن. انظر – بتصرفٍ: «لسان العرب» لابن منظور رحمه الله، مادة: [ن ب ر س].

(2) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]. قال البخاري في «صحيحه»: قَالَ قَتَادَةُ: ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الصَّادِقَةُ النَّاصِحَةُ. انتهى كلام الإمام البخاريِّ. قِيلَ: سُمِّيَت التوبة نَاصِحَة لِأَنَّ الْعَبْد يَنْصَح – أي: يَصْدُق – نَفْسه فِيهَا، فَذُكِرَتْ بِلَفْظِ الْمُبَالَغَة. وَقَرَأَ عَاصِم: ﴿نُصُوحًا﴾ بِضَمِّ النُّون، أَيْ: ذَات نُصْح. وَقَالَ الرَّاغِب: «النُّصْح» تَحَرِّي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فِيهِ صَلَاح، تَقُول: «نَصَحْتُ لَك الْوُدّ» أَيْ: أَخْلَصْتُه، وَ«نَصَحْت الْجِلْد» أَيْ: خِطْته. وَ«النَّاصِح»: الْخَيَّاط، وَ«النِّصَاح»: الْخَيْط، فَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون قَوْله: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ مَأْخُوذًا مِنْ الْإِخْلَاص أَوْ مِنْ الْإِحْكَام. وعن عُمر بن الخطّاب ﷺ – موقوفًا عليه – في تفسير التوبة النصوح: «أَنْ يُذْنِب الذَّنْب ثُمَّ لَا يَرْجِع». وَفِي لَفْظٍ: «ثُمَّ لَا يَعُود فِيهِ». أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيح عَن ابْن مَسْعُود مِثْله. انظر – بتصرفٍ كثيرٍ واختصارٍ: «فتح الباري» للحافظ ابن حجر، كتاب الدعوات، باب التوبة.

لله تعالى؛ من الاستقامة على أمْرِه.. من الخوف أن يراه حيث نهاه، أو أن يفتقده حيث أمَرَه، حتى لو كان المرءُ في أَحْلَكِ لحظات المعصية إذا به يخاف من ربه أن يطَّلعَ عليه في هذا الحال، فيسارع إلى أن ينصرف عنه.

كذلك من آثار هذه التقوى أن يظهر عليه الخضوع لله تعالى؛ كلما أُمر بأمرٍ سارع إليه، وأن يَتصدَّق وأن يَبْذل لهذه التوبة ما يكون سببَ قبولها عند الله تعالى[1].

والمحرمات كثيرةٌ كما ذكرنا؛ محرمات الجوارح كالكلام المحرم – من محرمات جارحة اللسان – أو في النظر، أو السماع أو المشي، أو البطش، أو البطن، أو الفرج، كما ذكر المولى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36].

عَلِمَ المرءُ إذن كيف يكفُّ لسانَه عن إخوانه، فما يكاد أن يقع في ذلك تذكر ربَّه فرجع، أو أن يقع نظره على محرم أو يقع في شهوة محرمة تذكر ربه ﷻ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. لذلك لما قالت له المرأة: «اتَّقِ اللهَ» قام مرتعدًا وانصرف حالَ كونها أحبَّ الناس إليه.

علمنا إذن من هذه الصورة التي قصها النبي ﷺ كيف يتوسَّلُ المرء بصالح العمل المخبوء بينه وبين ربه، المرفوع إليه بالإخلاص ﷻ، الذي يُري فيه العبدُ ربَّه خوفَه وخشيتَه مِنْه.

وظيفة المؤمنين اليوم

وهذه الصورة مهداةٌ للمؤمنين اليوم لأمرين:

الأمر الأول: أن يتوبوا مما هم فيه، لأنه ليس من المعقول أن يكون المرء واقعًا في المحرمات ثم يظن أنه يعمل شيئًا من الصالحات ليتوسل به إلى الله! مَن الذي قال ذلك؟!

(1) ولقد رأينا كيف أكدَّ ذلك الرجلُ توبته بأن تصدَّق بكل هذا المال الكثير للمرأة بالرغم من أن الأحاديث قد أشارت أنه سعى وتعب في تحصيله؛ ففي رواية الإمام مسلم قال ذلك الرجل: «فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ».

ذلك الرجل قام تائبًا إلى الله تعالى مما هو فيه، وأراد التوبة وحقيقتها، ونصحها لله تعالى بما قدَّم من مال، وبيَّنها بخوفه وخشيته إلى يوم أن دعا الله تعالى، فلا يُظَنُّ به هذا الرجل الصالح أنه يومًا ما عمل هذا العمل الصالح ثم بعد ذلك رجع إلى المعاصي والسيئات، ثم قال: أي ربِّ فَرِّجْ عنا ما نحن فيه، ففرَّج اللهُ عنه! كلا. بلْ هذه كرامةٌ من كرامات الله تعالى لأوليائه أن تُزَحْزِح الصخرة بالدعاء فقط بدون أي سبب من الأسباب الدُّنْيويَّة، فإذا كان كذلك فلا بد أن هؤلاء الأولياء كانوا مواظبين على أمره، مُتَجَنِّبين لِنَهْيِه أشدَّ التجنب، تائبين إليه على كلِّ حال، مستقيمين على السير إليه ﷻ، يخافون عذابه ويرجون رحمته ﷻ، ويستعدُّون أحسنَ الاستعداد للقائه جلَّ وعلا على قدر الاستطاعة. وعلى العكس؛ لا يُظن بالعصاة أن تكون لهم عينٌ أن يرفعوا أيديَهم إلى الله ليقولوا: «فرِّج عنا ما نحن فيه»، والعصاة كثرة كاثرة في هذه الحياة الدنيا، وكلهم يَدْعون ولم يُفرَّج شيء، ولم يرتفعْ عنهم شيء، وإنما تزداد الصخرةُ يومًا بعد يوم إحكامًا علينا كما تَرَوْنَ بما كسبت أيدينا، لذلك كان من أهم ما ينبغي أن يتعلمه المرء أنه لا يُعقل أن يكون له عمل صالحٌ يتوسل به على الحقيقة إلا وهو تائب مما كان فيه أولًا من المعاصي، وأن يكون مواظبًا على ما هو فيه من أعمال صالحة، ثم يستحضر هذا العمل الصالح بعد ذلك ليرفعه إلى الله بالإخلاص والخوف والخشية والرجاء والرحمة، ليكون هذا العملُ المتوسَّلُ به سببًا في أن تنزل رحمة الله وأن يرتفع البلاء.

الحاصل إذن: أنه لا يرفع البلاء إلا بالعمل الزائد على ما نحن فيه، لأن العمل الذي نحن فيه الآن اليوم لم يرتفع به البلاء، بل لا بد أن يكون العمل المتوسَّل به إذن عملًا جديدًا غير ما نحن فيه، ونتَّصِفُ بهذه الصفات التي ذكرنا حتى يرتفع بها البلاء، وأن يعلم الواحد مِنَّا أنَّ أساسَ رفع العمل إلى الله أن يكون صاحبُه تائبًا إلى ربه، فيسارع إلى

التوبة. أما أن يكون العبد عاصيًا ثم يرفع يديه إلى الله يقول: «يا رب يا رب»، فأنَّى يُستجاب له؟ كما قال النبي ﷺ[1].

المتفَّق عليه الآن: هو أن يبدأ المؤمنون توبة صادقة نصوحًا لله تعالى من كل عمل قد خالفوا فيه ووقعوا فيه، وسيئات قد ارتكبوها وجنايات اجترحوها، وأعمالٍ من أعمال الإيمان قد قصَّروا فيها ليستدركوها، فإن تابوا من ذلك وساروا إلى الله تعالى يُوشِكُ اللهُ تعالى أن يُوفِّقهم لأعمال صالحة مخبوئة بينهم وبين ربهم، يدعون بها ربهم؛ حينئذ يتوسلون بها له جلَّ وعلا ويرفع عنهم هذا البلاء. لا بد إذن أن يكون هذا الأمر من الأمور التي تستقر في قلب العبد لا يتزحزح عنها.

---

(1) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ؛ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: 172]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!». أخرجه الإمام مسلمٌ في صحيحه (1015). «ويَتَخَلَّفُ أثر الدعاء لعدة أسباب؛ منها: ضعف الدعاء؛ نتيجة للدعاء بأدعية ضعيفةٍ فيها اعتداءٌ وعُدْوان، ومنها: أنّ المرء لم يَجْمع قلبَه بِكُلِّيَّته على مطلوبِهِ حالَ الدعاء، ومنها: وجود الموانع التي تَمنع الإجابة من الله تعالى؛ كأَكْلِ الحرام - كما ذكر الحديث السابق -، ورَيْنِ الذنوب على القلب، وغلبةِ الغفلة، والشهوة واللهو على القلب، لذلك قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ». أخرجه الترمذي واستغربه (3479)، وحسّنه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب والترهيب» (1653). فالدعاء الضعيف كسَهْمٍ ضعيفٍ يَخْرج من قَوْس ضعيفة رخوة، فلا يَصِلُ إلى مقصودِهِ، فإذا جاءته موانِعُ الإجابة أيضًا من أَكْلِ الحرام، وكثرةِ الذنوب والخطايا والسيئات، وغلبةِ الغفلة، واللهوِ، والشهوةِ على المرء؛ فأنَّى يستجاب له؟!». انظر - بتصرفٍ كثير واختصار: «حال المؤمنين في رمضان» للمؤلف - الفصل الثالث من الطبعة الثالثة، فقد ذَكَرَ فيه أسبابَ استجابة الدعاء، وآدابَه، وأهميةَ الدعاء في رفع البلاء، والدعاءَ باسم الله الأعظم، وغيرَها من المعاني المهمة في الدعاء. فارجع إليه للأهمية والإفادة.

تُرَى هؤلاء المؤمنون المحاصرون بكل أنواع الموت في الغار؛ لو أنهم لم يُستَجَبْ لهم بدعائهم هذا، تُرى ماذا كان سيكون حالهم؟ سيضَّجِعُون ينتظرون الموت، ويكون هذا الغار الذي دخلوه هو مقبرتَهم التي يُحْشَرُون منها إلى يوم القيامة.

وانظر إلينا أيضًا، لو لم يُرفع لنا عملٌ إلى الله تعالى فسنكون في هذا الغار حتى نلقى اللهَ تعالى، لذلك كانت مسئوليتُنا عظيمةً: أن يحاول المؤمنون - كلٌّ على قدر طاقته - أن يدفع هذا البلاء؛ لتَنْزِل الرحمةُ، ويرتفع الخَطْب النازل، ويخفَّ الكَرب وتتنفَّسَ أُمة محمدٍ الصعداءَ مما هي فيه، كما تنفس هؤلاء الصالحون الصعداء عندما انفرجت عنهم تلك الصخرة.

***

نرجع إلى أصحاب الغار: وجدوا الصخرة تتحرك مرة أُخرى؛ إما أن يقولوا - وهذا أمر بعيد -: «اجلسوا فأكملوا دعاءكم لله تعالى»، وإما أن يكون قد حرَّكهم الوازعُ النفسي أن يخرجوا مما هم فيه من حبس، فانطلقوا ليدفعوا الصخرة بأيديهم، فكأنها قالت لهم: «لا، لا زال هناك عمل صالح آخر ينبغي أن تتوسلوا به إلى الله، لتتزحزح هذه الصخرة ولتخرجوا»، كأنها تقول لهم: «أنا لا أَنْدَفِعُ إلا بالله تعالى، لن أندفعَ بأيديكم وبصراخكم ودَفْعِكُم، ولن يُجِيرَكم أحدٌ من الخارج، ولن يأتيَكم مَن يسمع صوتكم ليعلم أنكم هاهنا محبوسون في الغار».

دفعوا الصخرة إذن فلم تندفع، قالوا: لا بد أن نستكمل الدعاء، فجلسوا يَدْعُون اللهَ تعالى. وبدأ الرجل الثالث يذكر قصته كما سنذكرها في الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

أداءُ الأمانةِ والسماحةُ في المعاملة وحُسْن العَهْد

وقال الثالث: «اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ».

كان عنده زرع أو أشغالٌ استأجر عليها أُجَراء ليقوموا له بهذا العمل. «وَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَجْرَهُ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ذَهَبَ وَلَمْ يَأْخُذْ أَجْرَهُ، فَثَمَّرْتُ لَهُ هَذَا الأَجْرَ». استثمر له ذلك حتى كثرتْ منه الأموالُ من الإبل والبقر والغنم والرقيق. «فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ». وكان أجره لا يزيد على فَرَقٍ - أو: فَرْقٍ -[1] من طعامٍ كما ذكرتْ إحدى روايات الحديث، يعني ستة عشر رطلًا مثلًا. فقال: «كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ» كل ذلك لك.

يقول في رواية أخرى: «فَقُلْتُ لَهُ»، أي: قلتُ له مُخْلِصًا: «يَا عَبْدَ اللهِ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ مَالٍ هُوَ لَكَ». بدليل أن الرجل الأجير قال: «يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي!». يعني: أكلُّ ذلك آخُذُهُ؟! أنا ليس لي عندك إلا شيءٌ قليلٌ؛ ثلاثة آصع من أرز. «لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! قَالَ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَقُلْتُ لَهُ» يعني: من غير استهزاء، و«قُلْتُ لَهُ» أي: من غير تطاوُلٍ، و«قُلْتُ لَهُ» يعني: بطيب نفسٍ: «كُلُّ ذَلِكَ لَكَ».

لم يُصدِّق هذا الرجل، فقال: «لَا تَسْتَهْزِئْ بِي». قال: «لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَاسْتَاقَهُ كُلَّهُ». يعني: أخذ كلَّ الإبل والبقر والرقيق والغنم، ولم يترك منه شيئًا.

انظُرْ كيف طابت نفس هذا الرجل وسمحت له أن يُعطيَه ذلك كلَّه، لو قال له مثلًا: «خذ ستة عشر رطلًا حقَّك، لا أزيدُ عن ذلك...»، لم يكن له في الشرع الحكيم أن يأخذَ

---

(1) «الفَرَق، والفَرْق» لغتانِ أي: بمعنًى واحد. قال النووي في «شرح مسلم»: «والفتح أشهر وأجود، وهو إناء يَسَع ثلاثة آصُع». اهـ. و«الصَّاعُ»: مكيالٌ يُكالُ به وهي أربعة أمداد، و«المُدُّ»: رَطْلٌ وثلثٌ عند أهل الحجاز ورطلانِ عند أهل العراق. انظر «مختار الصحاح»، مادة: [ص و ع]، [م د د].

أَزْيَدَ من ذلك عند الرجل[1]، وما كان له أن يطالبه بشيء آخر، وما كان الرجل مخطِئًا في حق هذا الأجير ولا في حق الشرع. ولو قال له: «لقد نَمَّيْتُ لك مالك وكثرته لك، فخذ نصفه، واترك النصف نظير ما قمت لك به من مجهود في استثماره» لم يكن أيضًا مخطئًا. لذلك لما قال الحديث هنا: «فَاسْتَاقَهُ كُلَّهُ؛ ولَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا» كأنه يقول: «ولم أُعَقِّبْ ولم أستهزئْ به، ولم أقلْ له: استثمرتُ لك مالَكَ، اتركْ منه شيئًا منه بما قد فعلتُ لك!».

لذلك لما كانت له عند الله تلك المعرفة الخاصة السابقة في الرخاء – أي ذلك العمل الصالح الذي فعله مخلصًا لله تعالى – وكانت نفسُه سَمِحةً طيبةً به؛ فرَّج اللهُ تعالى عنه الكرب بمجرد أن دعا: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ وَابْتِغَاءَ وَجْهِكَ - وفي رواية: مِنْ مَخَافَةِ عَذَابِكَ - فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ». فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون.

والقصة الثالثة تبين لنا هذا الأمر: لقد تَحلَّى ذلك الرجلُ الصالح بثلاثِ صفاتٍ؛ الأُولى: حُسْن العَهْد، والثانية: الأمانة، والثالثة: السَّماحة. هذه الثلاثة التي ذكرها شُراح الحديث، ونُفصِّل فيها بعض الشيء فيما يلي:

(1) وصورة هذه المسألة: أنَّ الرجل استأجر ذلك الأجيرَ بأرزٍ في الذِّمة، ولم يُسَلَّم إليه، بل عرضه عليه فلم يقبله الأجير كما أشارت بعض روايات الحديث، فلم يتعين ذلك الأرز في ذِمة المستأجر، فبقي على ملك الرجل المستأجِر فتصرَّف فيه وهو مِلْكه، فلذلك فكل ما استثمره المستأجر فهو له لا للأجير، وليس للأجير إلا فَرَق الأرز. وفي المسألة أقوال فقهية أخرى ليس هذا موضعها، راجِعْها إن شئت في شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، شرح الحديث المذكور.

أولًا: حُسْنُ العَهْد

قد كان بوسعه مثلًا أن يقول له: «اذهب أيها الأجير، ليس لك عندي شيء». قال ﷺ: «إِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ»[1]. وهذا مما افتقده المؤمنون اليوم إلا من رحم ربي، ليس عندهم حُسْن عهدٍ مع إخوانهم، خاصةً الذين صاحبوهم أو زاملوهم أو جاوروهم! ولا يَقِفُون معهم لا في سرَّاء ولا في ضراء، كأنَّ الأصلَ اليومَ هو عدمُ الأصلِ! وقول الرسول ﷺ يوضِّح خلافَه: «إِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ»، وكذلك قولُه ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»[2].

---

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (ح: 40) من رواية السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ...». وقال الذهبي في «التلخيص»: «على شرطهما وليست له علة»، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (تحت حديث رقم: 216)، وقد بوّب الإمامُ البخاريُّ في صحيحه في كتاب الأدب بابًا اسمه «باب: حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ»، ووضع تحته هذا الحديث التالي (6004) الذي يُبيِّنُ شيئًا من حُسن عهد النبي ﷺ: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَلَقَدْ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِي فِي خُلَّتِهَا مِنْهَا». أي: يُهدي من الشاه لصديقات السيدة خديجة رضي الله عنها وفاءً لها رضي الله عنها، حتى غارت منها السيدة عائشة رضي الله عنها بالرغم من أن السيدة خديجة رضي الله عنها تُوفيت قبل أن يتزوج النبيُّ ﷺ عائشةَ رضي الله عنها بثلاث سنين. و«حُسْنُ العَهْدِ» يعني: الوفاء به.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/ 210 ميمنية)، وقال الشيخ شعيب في التحقيق: «حديثٌ حسنٌ»، وتمامه عنده: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نبي الله ﷺ إِلَّا قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»، ومعنى: «لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ» أنَّ مَنْ جرى بينه وبين أحدٍ عهدٌ، ثم غدر لغيرِ عذرٍ شرعي فدينُه ناقصٌ. انظر بتصرف: «فيض القدير» للمناوي، وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: 91]، وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]. قال العلامة الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34]: «الإيفاءُ بالعهد والوفاءُ به هو: القيامُ بمقتضاه والمحافظةُ عليه وعدم نقضه =

ثانيًا: الأمانة

ثم انظر إلى عِظَم أمانة ذلك الرجل التي سبق وقد أشرنا إلى بعض ملامحها، والأمانة هي أعظم أخلاق الاستقامة واعتدال النفس[1].

واشتقاق ضده؛ وهو الغدر... وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ أظهرَ في مَقام الإضمار إظهارًا لكمال العناية بشأنه... وقوله: ﴿كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مسئولًا عنه، على حذف الجار...». انتهى مُلخَّصًا بتصرف. وفي البخاري (2459) ومسلم (106) واللفظ له عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النبي ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

(1) «الأمانة» مَصْدرٌ بمعنى المَفْعُول - يعني: المأمون - فلذلك جُمِعَتْ كما في الآية التي ستأتي. والأَمانةُ تقع على الطاعة، والعبادة، والوديعة، واللُّقْطَة، والأَمان. وعرّفها آخرون بقولهم: «هي كلُّ حقٍّ لزمَك أداؤُه وحِفظُه سواء كان ذلك الحقُّ حقَّ الله تعالى أو حقَّ الخَلْق». قال القاضي: «وحفظ الأمانة أثر كمال الإيمان، فإذا نقص الإيمان نقصت الأمانة في الناس، وإذا زاد زادت». اهـ. وقد رغّب الشَّرْعُ الحنيف في أداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]. هذه الآية من أمّهات الأحكام تضمنّت جميع الدِّين والشرع، يُخبر اللهُ تعالى فيها أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ». أخرجه الترمذي (1264) وقال: «حَسَنٌ غَرِيبٌ». وهذا يعمُّ جميعَ الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله ﷻ على عباده، من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام... وغير ذلك مما هو مؤتمنٌ عليه لا يطَّلِع عليه العبادُ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع... وغير ذلك مما يأتمنون به بعضُهم على بعض من غير اطِّلاع بينة ذلك. فأمر الله ﷻ بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أُخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ». أخرجه مسلمٌ (2582). وقد عَدَّ الشارعُ الحكيم خيانةَ الأمانة خَصْلَةً من خصال النفاق؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». أخرجه البخاري (34). انظر - بتصرف كثير: «فيض القدير» للمناوي، وتفسيرَيِ ابنِ كثيرٍ والقرطبيِّ، تفسير الآية الثامنة والخمسين من سورة النِّسَاء.

ثالثًا: المسامحة

ثم بعد ذلك أن يكون المرءُ حَسَنَ المعاملةِ مع الآخرين، سَمِحَ النَّفْس طَيِّبَها، فإن أساءوا إليه، فهو كما قال الله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]. فأرشدك الله تعالى في هذه الآية إلى أنْ تأمرَ بالمعروف، وأن تتحمل الأذى، وأن تَبْذُلَ النَّدَى في خدمة المسلمين.

انظر إلى هذا الرجل بَذَلَ ذلك المال كلَّه بسماحة وطيبة نفس، ومَنِ الذي يفعل ذلك اليوم؟! مَن الذي لو ترك رجلٌ عنده مبلغًا من المال - كمائة جنيه مثلًا - فثمَّره له، ثم يأتي بعد عدة أعوام يقول له: «كل هذه الأموال من حقك، المائةُ جنيه صارت مائةَ ألفٍ». من الذي يفعل ذلك؟! لذلك يتعلم المرء بعد الإيمان والإتيان بالأوامر، والانتهاء عن النواهي، والتوبة والعمل الصالح أن يُقدِّم هذه الأخلاقَ الحسنة بآثارها، يعني: ما يترتب عليها، لأنه قد جاء الامتحان بها فرسب مَنْ رسب، وهُمْ كثيرٌ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:13]، أو كما ذكر المولى ﷻ في نبأ الخَصْمِ الذين تَسَوَّرُوا محراب داود عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص: 24]. فيتعلم المرء إذن أن يضع في ذهنه كيف يبدأ التوبة، وأن يُصحِّح التوبة النصوح بالعمل الصالح، وأن يستقيم على الأوامر والنواهي، ثم ليبدأ في تحمل مسئوليته في رفع البلاء وفك الكربات بعمل مخبوء بينه وبين ربه ﷻ، دَفَعتْه إليه نفسٌ حسنة سمحة طيبة.

وظائف العبد المؤمن بعد رفع البلاء

والكلمة الأخيرة التي ينبغي أن ننظر فيها أيضًا في الحديث - ولَمْ نَرَ أحدًا من شُرَّاح الحديث قد أشار إليها - هي:

تُراهم بعد أن نجَّاهم الله من الغار ورفع عنهم الصخرةَ خرجوا هكذا صامتين ولم يعاهدوا ربهم على شيء؟!

المَنْطِقُ يقول عكس هذا: لا شك أنهم لم يخرجوا صامتين، بل حمدوا الله تعالى وشكروه، وعلموا قوته وقدرته وعلموا من الله جلَّ وعلا ما ينبغي أن يفعلوه بعد ذلك: وهو أن يعاهدوا الله تعالى على ألا يأتوا منكرًا أو معصية، وعلى أنْ يُسارعوا إلى الله تعالى بالتوبة والعمل الصالح، وأن يسارعوا إلى الله تعالى بالأعمال التي ترفع البلاء والكرب، وأن يزيدوا منها عما قَبْلُ.

وطريق رحمة الله تعالى بأن يقول الواحد منا: «الحمدُ لله تعالى، عَلِمَ اللهُ جلَّ وعلا مِني أعمالًا سيئةً كثيرةً، ولكنه رحيمٌ سِتِّيرٌ جلَّ وعلا، سوف أتوب من كل هذه الأعمال السيئة، وكذلك سوف أواظب على أمر الله تعالى، وسأذهب لأعتَمِرَ وأحُجَّ وأتصدق على الفقراء والمساكين وأُخفِّف عنهم، وأُراضي أهلي وأولادي، وسأُصلِح ما بيني وبين إخواني... وسوف وسوف...إلخ».

لا شك أنهم خرجوا وقد تعاهدوا على التوبة والعمل الصالح، خرجوا وقد تعاهدوا على أن يُنظِّفوا أنفسهم مما سترَ اللهُ عليهم، لا شك: أن كلّ ابن آدم خطَّاء، وخيرُ الخطَّائين التوابون[1]، سَتَرهم فصمَّموا على أن يكونوا أهلًا لهذا السترِ من الله تعالى بالتوبة والعملِ الصالح الذي تُقْبَلُ به هذه التوبة، وعلى أن يستمروا في تلك الأعمال الصالحة وأن يزيدوا منها وأن يتزوَّدوا بها كذلك في سيرهم إلى الله تعالى.

---

(1) عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ». أخرجه الترمذيّ واسْتَغْرَبَه (2499)، وابن ماجه (4251)، قال الحافظ ابن حجر: «سَنَدُهُ قَوِيٌّ»، بلوغ المرام (صـ 439، ط. دار الفيحاء).

خرجوا وقد تعاهدوا على أن ينشروا ذلك بين الناس وأن يقولوا لهم: «انظروا حدث كذا وكذا، واللهُ من رحمته فعل لنا كذا وكذا، توبوا إلى الله قبل أن ينزل علينا كذا وكذا». فكانوا كذلك هُدَاةً مَهْدِيِّين يَدْعون إلى الله تعالى، ويُبَيِّنون للناس أسماءَه الحسنى وصفاتِه العُلْيا، ويُخَوِّفُونهم ربَّهم ﷻ، ويُبيِّنون لهم رحمتَه وكرمَه وجُودَه وإحسانَه، وكيف يَقِفُ لأوليائه إن نزل بهم ما نزل حتى يُسْعِفهم ويُخْرِجهم مما هم فيه، وذلك هو مطلوبنا اليوم. فالمؤمنون اليوم - خاصة المتدينين منهم - عليهم هذه المسئولية لِـمَا علموا من تلك المواعظ البليغة والمعاني المهمة من معاني رفع البلاء والتوسُّل إلى الله تعالى بالعمل الصالح التي بيَّنها حديثُ النبي ﷺ.

وتلك المسئولية ملخصها أن يجلسوا كأنهم في الغار ويدعوا الله تعالى، ويُصَحِّحوا أعمالهم ويُخْلِصوا فيها ويُجَنِّبُوها بينهم وبين ربهم، ويصححوا توبتهم، ويرفعوا إلى الله تعالى أكفَّ الندم والضراعة حتى يرفع الله تعالى عنا. هلا تخيل أحدٌ نفسه في هذا الغار؟ نحن كلنا فيه! ولكنه غارٌ مُتَّسِعٌ لأن البلاء مُحْدِقٌ بالجميع!

الإخوة مطالبون إذن بأن يجلسوا - لا سيما في بيوت الله تعالى - ليروا أي عملٍ يُمْكِنُ أن يرفعوه إلى الله تعالى ليرفع البلاء، ليبينوا لربهم أنهم حريصون على دينه.. حريصون على القيام بأمره.. حريصون على العمل الصالح.. حريصون على كذا وكذا مما أمرهم به ووصاهم به ﷻ، لا أن يسمعوا كلام الله ثم كأنهم لم يسمعوا. لذلك نعى الله تعالى على قوم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

[الأنفال: 20-25].

الفصل الرابع

دروس مستفادة من الحديث

- أولا : عبرات من الحديث
- ثانيا : صفات قبول العمل الصالح
- ثالثا : التوسل إلى الله تعالى وأنواعه
- خاتمة

وهذا الفصل الذي نحن بصدده الآن يتعلق ببعض الدروس المستفادة في نهاية الكلام على الحديث، حتى نستوفي شيئًا من كلام النبي ﷺ الذي لم يترك خيرًا إلا ودلَّ المؤمنين عليه، وحَثَّهم في الوصول إليه والقيام به، ولم يترك شرًّا إلا ونهاهم عنهم وبيَّنه لهم ﷺ، فأكمل الله ﷻ لهم الدين وأتمَّ عليهم النعمة بذلك.

أولا: عبرات من الحديث

العبرة الأولى: لا يرفعُ البلاءُ عن المسلمين حتى يتحملَ كلٌّ مِنَّا مسئوليته

دخل هؤلاء الثلاثة الغار ثم وقعت الصخرة على فتحة باب الغار فَسَدَّتْهُ. لا شك - كما أشرنا - أن المنطق يقول إنهم حاولوا أن يدفعوها بقوتهم فلم يفلحوا في ذلك. دعا الأول فانْسَاحَت[1] الصخرة قليلًا غير أنهم لم يستطيعوا الخروج، ثم دعا الثاني كذلك فانساحت أيضًا ولكن لم يستطيعوا الخروج كذلك، ثم دعا الثالث فانساحت ونجحوا في الخروج من ذلك الغار.

انظر! لم تندفع الصخرة إلا باستكمال دعاء الثلاثة. لم تندفع الصخرة بدعاء واحد منهم أو بدعاء اثنين، وإنما كأن الله أراد للمؤمنين أن يعلموا أنه طالما اشتركوا في هذه المصائب التي نزلت وأحاطت بهم فإن كل أحدٍ عليه مسئولية في دفع هذه الصخرة، وأنها لن تندفع حتى يقوم كل أحد بمسئوليته.

وهذه هي العبرة الأولى؛ قام الأول فدعا فانساحت الصخرة قليلًا، لكن لم تندفع بالكلية. ثم قام الثاني ودعا وكذا فلم تندفع الصخرة، قاموا ليدفعوا فلم تتحرك الصخرة

---

(1) «انْساحَت الصخرة»، أي: اتسعت الصخرة، ومنه: ساحة الدار. قاله الحافظ نقلًا عن الخطابي. وفي رواية صحيحة: «انْسَاخَتِ الصَّخْرَةُ» بمعنى: انشقت الصخرة. وفي رواية حسنة: «فَزَالَ ثُلُثُ الحَجَرِ». والحديث يفسر بعضه بعضًا. انتهى ملخصًا بتصرف من كلام الحافظ في «الفتح». وانظر إلى كرامة الله تعالى لهؤلاء الثلاثة: شقَّ لهم تلك الصخرةَ العظيمة بمجرَّد الدعاء.

كأنها تقول لهم: «ارجعوا فاستكملوا ما أراد الله منكم حتى يدفعها هو ﷻ، لن يدفعها أحدٌ غيره». فلما دعا الثالث واستكملوا العمل الصالح، وتحمَّل كلٌّ منهم جزءًا من هذه المسئولية في دفع الصخرة، اندفعت الصخرةُ.

وهذه هي العِظَة التي ينبغي أن يعلمها المؤمنون: أنه لا يندفع ما نحن فيه اليوم إلا بأن يجتمع المؤمنون للقيام كلٌّ بمسئوليته، وأنَّ كلَّ مُقصِّرٍ في هذه المسئولية يُؤَخِّر بسببه رفعُ البلاء، وزحزحةُ الصخرة، وخروجُ الناس مما نزل بهم من الخَطْب، قد نزلت البلايا بِنَا يمينًا وشمالًا، وإذا نحن على حالٍ هو أسوأ ما يكون! حال لا تندفع به الصخرةُ، بل تزداد الصخرة إحكامًا، فصارت تلك الصخرة الواحدة صخراتٍ كثيرةً تنزل لتحكم السَّدَّ على أهل الإيمان، ولتزيد مما هم فيه من البلاء.

لماذا يبتلي الله عباده؟

لا شك أن هذا البلاء والاختبار الذي نزل بالمؤمنين كان إما من الله تعالى ليرفع درجاتهم إليه، أو نَزَل عليهم بسبب شيء من ذنوبهم ومعاصيهم. والأخير هو اللائق بحالنا اليوم، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: 123]. هذا هو حُكْمه جلَّ وعلا وقضاؤه الذي لا يَتَخَلَّف؛ مَنْ عصاه فله السُّوءُ جزاءً، وما نحن فيه هو جزاء السوء الذي فعلنا، والمعاصي التي ارتكبنا والجنايات التي اجترحنا، وبالتالي إذا زادت هذه المعاصي زاد إحكامُ الصخرة علينا؛ هذه هي العبرة الأولى.

ولا يفكر كلُّ أحدٍ منا في تحمل مسئوليته لأَنْ يرفع هذا البلاء، بل يقرأ كل أحد هذا الحديث وتلك المواعظ ثم يذهب ليستكمل إحكام الصخرة، لا فَكَّها وزَحْزَحَتَها، ليستكمل بذلك شهواته وما هو فيه من تقصيرٍ وتكاسلٍ وتوانٍ، وما هو فيه من شحناء وبغضاء مع إخوانه.

وهذا الحال السيئ يزدادُ - ولا ينقص - يومًا بعد يوم، لا يرى المرءُ انفراجًا قريبًا لما هو فيه، وإن كان أملنا في الله كبيرًا.

العبرة الثانية: التَّوسُّل بأفضلِ الأعمال

والسؤال الذي ينبغي أن يسأل المرء نفسه: تُرى هؤلاء المؤمنون المتقون قد توسَّل كلٌّ واحد منهم إلى الله تعالى بأي عملٍ قد عمله ليرتفع البلاء؟ أو أنه قد اختار أعظم عمل يمكن أن يرفع الله به البلاء من أعماله التي أتاها؟[1] تُراه قد كان له عمل أفضل من ذلك ولم يتوسل به؟ أو أن ذلك كان خط دفاعه الأخير إذا لم يُستجب له به كان هذا الغارُ قبرَهم إلى يومِ يُبْعثون؟

لذلك وجدناهم يتوسَّلون إلى الله تعالى بصالح أعمالهم كما قالوا: «لَا يُنْجِيكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ». ولا شك أن كل واحد منهم يعلم ذلك العمل الصالح ورَفَعَهُ إلى الله تعالى يومًا ما، كان يودُّ بهذا العمل أن يُخرجه اللهُ تعالى مما هو فيه أو يجعله عند الله تعالى ذُخرًا له إنْ نزل به نازلٌ أو حلَّتْ به واقِعةٌ، لذلك رأينا منهم هذا الحال الطيب.

ويأتي السؤالُ اليومَ الذي نسأله أنفسنا: مَنِ الذي قد وصل إلى عمل صالح لا صلاحَ فيه بعدَه يدعو الله به لتنفرج الصخرة؟ مَن الذي رأى في أعماله عملًا قد قدَّمه لله تعالى وتحققت فيه تلك الشروطُ التي انفرجت بها الصخرة؟ في كل مرة يدعو واحدٌ منهم الله ﷻ فلم تنفرج الصخرة كلُّها، حتى إذا اجتمعت الأعمال على أحسن عمل صالح توشك أن تنفرج، فكان هذا الأمر الثاني أنهم دعوا الله بصالح أعمالهم، وليس عملًا صالحًا

(1) ويدل على أنهم اختاروا أفضل أعمالهم قولُه ﷺ في رواية أخرى أخرجها الإمام البخاري في كتاب البيوع: «اُدْعُوا اللهَ تَعَالَى بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ». وفي رواية أخرى حسَّنها الحافظ في «الفتح»: «اُدْعُوا اللهَ بِأَوْثَقِ أَعْمَالِكُمْ». وفي رواية أخرى حسنها أيضًا الحافظ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا شَيْئًا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَدْعُوَ كُلُّ امْرِئٍ بِخَيْرِ عَمَلٍ عَمِلَهُ قَطُّ».

فحَسْبُ، بل دَعَوُا اللهَ تعالى بالعمل الذي ليس عندهم بعده عملٌ صالحٌ يُمْكن أن يتوسلوا به إلى الله تعالى[1].

والناظرُ في مجموع أحوالنا اليوم لا يجد ما يَصْلح من مجموع أعمالهم لأن يرتفع إلى الله ليفرج اللهُ تعالى به الصخرةَ، وإلا لانْفرجتِ الصخرة منذ زمن. فلمَّا لم تنفرج الصخرة بل زاد إحكامُها دلَّ ذلك على أن هذه الأعمال التي نأتيها لم تَرْقَ بعدُ إلى المستوى المطلوب، وحتى لو ارتقتْ من بعض الناس فغيرُهم يُضعِفُ هذه الأعمال بالمعاصي والسيئات، ولا يكون لها الأثرُ الذي لو اجتمعت تلك الأعمال الصالحة لتنزلت بها رحمةُ الله تعالى، يعني: لو عملتْ جماعةٌ قليلةٌ أعمالًا صالحةً يُمْكِنُ أن تُفَكَّ بها الصخرةُ لكانت الأعمالُ السيئة للباقي سببًا في عدم انفراج الصخرة؛ لأنَّ ما يصعد إلى الله تعالى من ذلك الجَمْع المُكرَّم أقلُّ بكثير مما يصعد إليه من العمل السيئ للباقي، فيغلب هذا العملُ السيئ العملَ الصالحَ، فلا تندفع الصخرة.

لذلك فإنه من المهم أن يُفتِّش كلُّ أحدٍ منا في عمله الصالح ليُنقِّيَه مما علق فيه من الشوائب، وكذلك أن يُنشئ عملًا صالحًا جديدًا تتوفَّر فيه صفاتُ القبول.

---

(1) ولقد بحث الحافظ في «الفتح» في أيِّ الثلاثة عملُه كان أفضلَ من صاحِبَيْه، واختار أن يكون صاحبُ المرأة أفضلَهم؛ فصاحبُ الأبوينِ فضيلتُه مقصورةٌ على نفسه لأنه أفاد أنه كان بارًّا بوالديه، وصاحبُ الأجير نفعُه متعدٍّ، وأفاد أنه كان عظيمُ الأمانة، وصاحبُ المرأة أفضلُهم لأنه أفاد أنه كان في قلبِه خشيةُ ربِّه، وقد شهد الله لمن كان كذلك بأن له الجنةَ حيث قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40، 41]. وقد أضاف هذا الرجل إلى ذلك تركَ الذهب الذي أعطاه للمرأة، فأضاف إلى النفع القاصر النفع المتعدي، ولا سيما وقد كانت بنت عمِّه، فتكون فيه صلة رحم أيضًا، وقد تقدم أن ذلك كان في سنةِ قَحْطٍ، فتكون الحاجة إلى ذلك أَحْرَى. انتهى بتصرف كثير.

العبرة الثالثة: اجتماع الصالحين وتعارفهم وتآلفهم وكونهم يدًا واحدة

فإذا اجتمع المرء اجتمع مع الصالحين.. انظر لقد اجتمعوا في الرَّعْي، حتى في أمور طلب المعاش يُذَكِّر بعضُهم بعضًا.. يُعين بعضُهم بعضًا على العمل الصالح.. يُحذِّرون بعضهم إذا انحرف أحدهم إلى الدنيا ونسي الآخرة وغفل قلبه عنها.

فكانت الصحبة الصالحة سببًا في رفع البلاء؛ لأنه لو كان بينهم عاصٍ أو مُقصِّر لا عمل له، تُرَى هل كانوا سيخرجون من الغار؟!

فكانت الإشارة إلى هذه المصاحبة.

ثانيا: صفاتُ قَبول العمل الصالح

الصفة الأولى: كانت أعمالهم أحسنَ الأعمال

قد بيَّن الحديثُ صفات القبول في هذا العمل ورفع البلاء به؛ يقول الأول: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ» أي: مُخْلِصًا فِيهِ لله تَعَالَى[1]. «فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ شَيْئًا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ»، والرواية الأخرى: «إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْكَ وَرَجَاءً فِيكَ - أو: خَوْفًا مِنْ عَذَابِكَ وَرَجَاءً فِي رَحْمَتِكَ - فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ». كانت الصفة الأولى - كما ذكرنا - أن تلك الأعمال كانت أصلح وأحسن أعمالهم على الإطلاق، يعني: أعدُّوا ما لا صالح بعده يمكن أن تَنْحلَّ به العُقَد وأن تنفرج به الكُرَبُ. لذلك كان الأمر الأول هو هذا الصلاح الذي لا صلاح بعدَه في مثل هذا العمل، وما ذكره الحديث يبين أن هذا العمل قد تميز بالإخلاص لله تعالى رجاء الرحمة وخوف العقوبة.

الصفة الثانية: كانت أعمالُهم خَبِيئةً بينهم وبين ربِّهم

---

(1) وفي رواية أخرى عند الإمام البخاري: «فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ». وفي رواية عند الطبراني من رواية النُّعمان بن بشير ﷺ: «رَجَاءَ رَحْمَتِكَ وَمَخَافَةَ عَذَابِكَ». وسندُها حسنٌ كما ذكر الحافظ في «الفتح».

والصفة الثانية في تصوير هذا العمل أن هذا العملَ كان خبيئةً بينهم وبين ربهم؛ أي: سِرًّا لم يطلع عليه أحدٌ غيرُهم. فالذي كانت له ابنة عمٍّ لم يذهب ليقول: «تركت المال لابنة عمي بعد أن راودتها عن نفسها ثم اتقيتُ اللهَ»، وإنما فَعَلَ ما فَعَلَ بينه وبين ربِّه ﷻ، وتعفَّفَ عن المحرَّمات خوفًا من الله تعالى. لَمَّا قيل له: «اتَّقِ اللهَ» انصرف، ثم بيَّن توبته هذه في هذا العمل بما ترك من ذَهَبٍ لهذه المرأة المسكينة، فكان هذا الحال مما ينبغي أن يكون في أعمال المؤمنين اليوم، بأن يكون بينهم وبين ربهم ﷻ هذا العمل الذي قد اتسم بالإخلاص، والخوف من الله، والرجاء في رحمته، وأن يكون أعلى ما يمكن أن يعملوا من عمل صالح، وفي نفس الوقت يكون خبيئة بينهم وبين ربهم، فإذا دَعَوْا ربَّهم به ﷻ أجابهم، وإذا سألوه أعطاهم وفرَّج عنهم، ومِن ثَمَّ كان هذا الحالُ الأخير هي مهمتَنا اليومَ؛ وهو كيف يعمل المرء عملًا صالحًا بينه وبين ربه لِيَدَّخره له جل وعلا ليوم شِدَّتِه، كما قال النبي ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1].

وكون العمل مخبوءًا بين المرء وبين ربه يعني: لا يطَّلِعُ عليه أحدٌ؛ لتتحقق فيه تلك الأوصاف التي سلفت من كونه خالصًا لله تعالى، ويفعله صاحبُه على رجاء رحمة ربِّه وعلى خوفٍ منه. وانظر إلينا: لا بد أن يُخطط كلٌّ مِنَّا لعمل صالح يكون خبيئةً بينه وبين

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (1/ 307، وصحّحه الشيخ شعيب في التحقيق)، وتَذْكُرُ تمامَ لفظِ الحديث للفائدة: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النبي ﷺ فَقَالَ: يَا غُلَامُ - أَوْ: يَا غُلَيِّمُ - أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟. فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ. احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ. تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ. وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ. قَدْ جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَوْ أَنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا». وأخرجه الترمذي بنحوه (2516) لكن بدون جُملة المتن أعْلاه، وقال: «حسن صحيحٌ». اهـ. وهذا الحديث أفردَه المؤلفُ بالشرح في رسالة مهمّة بعنوان: «احفظِ اللهَ يحفظْكَ»، فارجعْ إليها تَسْتفِدْ إن شاء الله تعالى.

ربه، حتى إذا وقع في الكرب دعا الله تعالى به ففرَّج عنَّا؟[1]. إن المؤمنين اليوم في غفلة كانت السببَ المباشر في نزول ذلك البلاء علينا، فإن هذه الغفلة التي نحن فيها عن أوامر الشرع، وعن الله تعالى وعن سنة رسوله ﷺ وعن الاستعداد للقائه ﷻ، وعن القيام بصالح الأعمال، هذه الغفلة هي الموقعة في تلك الشهوات والشبهات من ناحية؛ لأنه إذا لم يشتغل العبد بالطاعات أوقعه الشيطانُ في تلك الشهوات ولا شكَّ، لذلك نهانا الله تعالى عن الغفلة قائلا: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]. وقال بعض الصالحين: «من كان هَمُّه ربَّه اشتغل به عما سواه». فدل مفهوم ذلك القول أن الغافل ليس همُّه ربَّه جل وعلا.

ومن ناحية ثانية فإن سبب هذه الغفلة هو الشهوات والشبهات.. هو المعاصي والجنايات.. هو الركون إلى الدنيا والميل إليها والتوسُّع فيها.. هو نسيان الآخرة. فكلٌّ منهما – المعاصي والغفلةُ – تُؤدِّي إلى الأخرى. ومن ثم علم المرء أنه حتى لا يكون غافلًا في وقت الرخاء فلا بد أن يكون مُرْتبطًا بربه في كل أحواله، فلا ينساه جل وعلا، لأنه قد علم أنه في الرخاء لا بد أن يُسارع إلى هذه الأعمال الصالحة، فإذا نزلت به الشدة في الدنيا أو في الآخرة، فرج الله تعالى عنه بما قدَّم، ولا يكون كما قال الله على لسان فرعون لما جاءه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90]، قيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 91]. بِمَا سبق من فرعون من المعصية جاءه ردُّ الله تعالى لما نزلت به الشدة والبلاء، وهو أنه قد سبق منه العصيان والغفلة،

(1) قال ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ». أخرجه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (ج1/ ص 296) مرفوعًا وموقوفًا، وصحَّحَ الشيخ الألباني الحديث مرفوعًا كما في «الصحيحة» (2313). و«الخَبْءُ»: كل شيء غائب مستور، يُقال: «خَبَأْتُ الشيءَ» إذا أخفيتُه. و«الخَبْءُ» و«الخَبِيءُ» و«الخَبِيئَةُ»: الشيءُ المَخْبُوء، و«المخبوء»: المدَّخر. قال المناوي في شرح هذا الحديث: «أن يكون له خَبِيءٌ» أي: شيءٌ مخبوءٌ، أي: مُدَّخر. اهـ.

وسبق منه التفريط والتقصير، ولم يكن ربُّه على باله وقلبه، ولم يُعِدَّ لهذا اليوم عُدَّته التي يُلاقي بها الله ﷻ، فماذا ينتظر إذن إذا نزل به البلاء؟ لَمَّا نزل البلاء بفرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فلم يكن له عند الله تعالى ما يُنجِّيه به، وهي مشكلتنا اليوم، لما نزل البلاء بنا لم يكن لنا من الأعمال ما يرتفع به البلاء.

ثالثا: التوسُّل إلى الله تعالى وأنواعه

وهذا يجرنا إلى ما نودُّ أن نشير إليه، وهو أن الدعاء والتوسل إلى الله تعالى الذي ذكره العلماء اتفاقًا هو: (1) أن يتوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح. (2) أو أن يتوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين. (3) أن يتوسل المرء إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وهذه الثلاثة محِلُّ اتفاقٍ بين العلماء. ونشير إلى ما تَحْمِلُه هذه المعاني ليرى الناسُ هذه الأمورَ التي تُوضِّح الطريقَ إلى الله تعالى، وتُوضح رفْعَ البلاءِ الذي نحن فيه، وهي..

النوع الأول: التوسل بالأعمال الصالحة

كما بيَّن حديث الصخرة أن الدعاء لله تعالى والتوسل إليه به كان من أعظم ما يرفع الله به البلاء، ولكن ما يهمنا في هذه النظرة والعبرة هو فعل الصحابة، فلم نَرَ النبيَّ ﷺ أو صحابته رضي الله عنهم بالرغم مما كانوا فيه من جهاد وبلاء، أو مما كانوا فيه من شَظَف[1] العيش وملاقاة الأعداء، لم نرهم يتوسلون إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة عند دعائهم، وإنما وجدناهم - وهذا فارِقٌ رأيتُه عند النَّظَر وتَقْلِيبِي في هذه المسألة - رأيناهم يَدْعون اللهَ تعالى مُباشرةً، فيستجيب لهم ﷻ. ذهبوا إلى النبي ﷺ مثلًا فقام القائم على باب المسجد، وقال: «هَلَكَ المَالُ وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا». قَالَ: «فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ

(1) «الشَّظَف»: الضيق والشدة ويُبْس العَيْش وشِدته، جمعه شِظافٌ. انظر - بتصرف بسيط: «القاموس المحيط»، مادة: [ش ظ ف].

ﷺ يَدَيْهِ وَدَعا، فَنَزَلَ المَاءُ أُسْبُوعًا كَامِلًا»! دخل ذاك الرجل، أو غيرُه فقال: «يَا رَسُولَ الله، تَهَدَّمَ البِنَاءُ وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**. فَانْقَشَعَتِ السَّمَاءُ وَارْتَفَعَ المَطَرُ»[1]؛ هذا فِعْلُ رسول الله ﷺ.

أما الصحابة - رضوان الله عليهم - فلم يُنقل إلينا أنه قال القائل منهم: «اللهم إنْ كنتُ فعلتُ كذا فافرج عنا ما نحن فيه»، بل كان يقول منهم قائِلُهم: «اللهم افعل كذا وكذا». حتى قال النبي ﷺ: «**كَمْ مِنْ أَشْعَثَ.. أَغْبَرَ.. ذِي طِمْرَيْنِ.. لَا يُؤْبَهُ لَهُ؛ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ! مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**»[2] ﷺ. فعندما كانت تشتد المعركة ويصعُب النصرُ.

---

(1) أخرجه البخاري في أكثر من موضع من صحيحه؛ منها (1033). ونذكر تمام لفظه فيه حتى نَرَى شيئًا من بركة دعاء النبي ﷺ وسرعة استجابة الرب ﷻ له: عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ عَلَى المِنْبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَلَكَ المَالُ وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا. قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ، وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ، قَالَ: فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، قَالَ: فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَفِي الغَدِ وَمِنْ بَعْدِ الغَدِ وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الجُمُعَةِ الأُخْرَى، فَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! تَهَدَّمَ البِنَاءُ وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا. قَالَ: فَمَا جَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا تَفَرَّجَتْ، حَتَّى صَارَتِ المَدِينَةُ فِي مِثْلِ الجَوْبَةِ، حَتَّى سَالَ الوَادِي - وَادِي قَنَاةَ - شَهْرًا. قَالَ: فَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا حَدَّثَ بِالجَوْدِ».

(2) أخرجه الترمذيُّ من رواية أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا (3854)، وقَالَ - أي الترمذيُّ -: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ». اهـ. وقولُهُ: «أَشْعَثَ» أَيْ: مُتَفَرِّقَ شَعْرِ الرَّأْسِ، «أَغْبَرَ» أَيْ: مُغَيَّرِ البَدَنِ، «ذِي طِمِرَيْنِ» أَيْ: صَاحِبَ ثَوْبَيْنِ خَلَقَيْنِ، «لَا يُؤْبَهُ لَهُ» أَيْ: لَا يُبَالَى بِهِ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، و«كَمْ» خَبَرِيَّةٌ تفيد التكثير. قَوْلُهُ: «لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ» أَيْ: لَأَمْضَاهُ عَلَى الصِّدْقِ وَجَعَلَهُ بَارًّا فِي الحلف، وقوله: «مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ»، فِيهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ. ورواه الإمام مسلم مختصرًا (2622) بلفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ؛ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ!». هذا عن ثواب مِثْل هؤلاء في الدنيا، أما في الآخرة فقد قال فيهم رسول الله ﷺ: «أَلَا أُدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ! وَأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ جَوَّاظٍ عُتُلٍّ مُسْتَكْبِرٍ». متفق عليه من رواية حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ ﷺ مرفوعًا: البخاري (6657) واللفظ له، ومسلم (2853).

ويبتعد عنهم كان يلجأ إليه الصحابةُ، يقولون: «يا براءُ[1]! ادع الله لنا أن يمنحنا أكتافهم، وأن ينصرنا عليهم». حتى إذا كانوا في فتح فارس وتحصَّن منهم الفُرْسُ إلى درجة لا يستطيعون أن يفتحوا تلك القلعة فإذا بهم يقولون: «أين البراء؟ ادعُ اللهَ أن يمنحنا أكتافهم[2]، وأن ينصرنا عليهم». فيقول: «اللهم امنحنا أكتافهم واجعلني أول شهيد»[3]. فمنحهم الله تعالى أكتافهم وقتلوهم وانتصروا وكان أول شهيد ﷺ.

فلم يكن فيهم هذا الحال الذي نشير إليه الآن وهو أنهم كانوا يقولون: «اللهم إن كنتُ فعلتُ كذا ابتغاء وجهك ومرضاتك... إلخ». وكأنهم قد وصلوا إلى الحالةِ العُليا من العمل الصالح والإخلاص والبذل، بحيث كانت هذه الأعمال الصالحة جاهزةً ليرفع الله تعالى بها البلاء بمجرد أن يدعوا، وإنما كانوا يقولون: «اللهم افعل لنا كذا وكذا.. اللهم أعطنا كذا وكذا.. اللهم انصرنا». فيحدث النصر من ساعتها! يعني: رأيناهم رضوان الله

---

(1) هو البَرَاءُ بنُ مَالِكِ بنِ النَّضْرِ الأَنْصَارِيُّ، النَّجَّارِيُّ، المَدَنِيُّ، البَطَلُ الكَرَّارُ، صَاحِبُ رَسُوْلِ الله ﷺ، وَأَخُو خَادِمِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ. شَهِدَ أُحُدًا، وَبَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ. وفي السِّيَرِ أَنَّ البَرَاءَ يَوْمَ حَرْبِ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْتَمِلُوهُ عَلَى تُرُسٍ، عَلَى أَسِنَّةِ رِمَاحِهِم، وَيُلْقُوهُ فِي الحَدِيْقَةِ فَاقْتَحَمَ إِلَيْهِم، وَشَدَّ عَلَيْهِم، وَقَاتَلَ حَتَّى افْتَتَحَ بَابَ الحَدِيْقَةِ. جُرِحَ يَوْمَئِذٍ بِضْعَةً وَثَمَانِيْنَ جُرْحًا، وَلِذَلِكَ أَقَامَ خَالِدُ بنُ الوَلِيْدِ عَلَيْهِ شَهْرًا يُدَاوِي جِرَاحَهُ. وَقَدِ اشْتُهِرَ أَنَّ البَرَاءَ قَتَلَ فِي حُرُوْبِهِ مَائَةَ نَفْسٍ مِنَ الشُّجْعَانِ مُبَارَزَةً. اسْتُشْهِدَ يَوْمَ فَتْحِ «تُسْتَرَ» سَنَةَ عِشْرِيْنَ. وكان ﷺ ببطولته الفائقة من أسباب فتح المدينة، وهذه المدينة تقع الآن في إيران بالقرب من حدود البصرة، والفُرْس يسمونها الآن «شوشتر»، وقبره ﷺ فيها. والقصة المذكورة أعلاه والحديث يُبيّنان شيئًا من فضله ﷺ. انظر- بتصرفٍ كثير واختصارٍ: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (جـ1/ صـ 195-198)، طبعة الرسالة.

(2) هذه القصة أخرجه الحاكم بنحوها في المستدرك (ح: 5274 ط. العلمية) من رواية أنس بن مالك ﷺ وعن أخيه البراء. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه»، وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح».

(3) لطيفة: في قول البراء ﷺ «واجعلني أول شهيد» مع حاجة المسلمين لدعائه – في فتوحات أخر – إلا أنه طلب الشهادة لرغبته فيها من ناحية، ومن ناحية أخرى يدفع عن نفسه تَعلُّق القلوب بدعائه. وهذا من تمام الرغبة في الخفاء.اهـ.

عليهم في كل ما يَعْرِض لهم من هذه الأمور والشدائد يدعون الله تعالى كما كان يدعو النبيُّ ﷺ، وهذا دليل على كثرةِ العمل الصالح الذي ينبغي أن يكونَ مهمة أهل الإيمان اليوم، بأن يكونوا متصلين بربهم، مواصلين للعمل الصالح، مسارعين إليه، مجتنبين للآثام والمعاصي، فإن وقعت النازلة والبلاء للامتحان أو لمعصية بعض الخلق ومخالفتهم، إذا بدعائهم لربهم ﷻ يُفرج عنهم ما هم فيه دون أن يقول أحدهم: «اللهم إن كنت فعلت كذا وكذا». لأنه قد فعل كذا وكذا وادخر ذلك عند ربِّه من الأعمال الصالحة ما لا يَحْتاج أن يقول معه: «إنْ كنتُ فعلتُ وإن كنت فعلتُ»، بل المفعول منه عند الله تعالى يكفيه أن يتوسل به، يكفيه أن يدعو الله تعالى به، ويقول: «اللهم أعطنا، اللهم انصرنا» فإذا به يتحقق لهم ذلك كله.

ولذلك يتعلم المؤمنون: كيف يكونون مَوْصولينَ بالله تعالى إلى الدرجة التي يكون كلُّ وقتهم وظاهرهم وباطنهم منشغلًا بتلك الأعمال الصالحة التي يمكن أن يتوسل بها المرء إلى الله تعالى في أي لحظة ينزل فيها البلاء.

أما نحن عندما ينزل البلاء بنا نتلفت إلى أي عمل صالح، فلا نجد عملًا صالحًا يمكن أن يرتفع إلى الله! وكأن كلَّ هذه الأعمال مغشوشةٌ، لا إخلاصَ فيها ولا رُوحَ فيها ولا بَذْلَ. لذلك كان من أعظم صفات هذه الأعمال التي يأتون بها ربهم ليرفع عنهم أنها من أعظم الأعمال شِدَّةً على النفس، وكانت كذلك من أعظم الأعمال صِدْقًا مع الله تعالى، يعني كما كانوا مُخْلِصين كانوا صادقين فيها، والصِّدْقُ في العمل يعني: أن يبذل المرءُ في العمل بذلًا لا يُمْكِنُ أن يكون وراءه بذلٌ آخر لم يبذله؛ بحيث يخرج العمل على أكمل وأتمّ أحواله التي يرتفع بها إلى الله تعالى، يتحمَّلُ فيها حينئذٍ المشقةَ، والسَّهرَ والتعبَ، وتركَ شهوةِ النفس، والإتيان على النفس، وبذلَ المال والإنفاق، وحُسْنَ العهد كما ذكرنا

والأمانةَ، والابتعادَ عن المحرمات، والخوفَ والرجاءَ... إلى آخر هذه الصفات التي رأينا في حديث الصخرة فيما شرحنا من قبل.

فكانت تلك الأعمال على هذا الحال الحسن ديدن المرء إذا أراد أن يعمل عملًا لله تعالى، يليق به جل وعلا، لا أن يرفع إلى ربه أعمالًا لا تليق بالله جلَّ وعلا، بل لا تليق بأحدٍ من إخوانه أن يقدمها له، فإذا كانت الصلاة - مثلًا - بلا رُوح ولا خشوع ولا إقبال، فمن الذي يُقدِّم جاريةً ميتةً هديةً لَمَلِكٍ؟! وكيف يكون موقف المَلِك منه في ردِّ هذه الهدية التي يرفعها؟ وكيف يكون عقابه وطرده عنه؟ لذلك لا ينتظر المرءُ بهذه الأعمال الضعيفة - التي وَفَّر فيها وقتَه وجُهْدَه لغير الله تعالى - الثوابَ العظيم. أما حال الصحابة الكرام رضي اللهم عنهم فكان على عكس ذلك، وكانت كرامةً لأوليائه كذلك أن يُفرِّج عنهم، كرامةً لأحبائه ﷺ أن يراهم متضرعين إليه بهذا الدعاء وقد ادخروا أعمالًا لا يحتاجون فيها إلى أن يقولوا: «اللهم إن كان كذا وكذا». بل كل عمل أتَوْه قد تحقَّق فيه الإخلاصُ والبَذْلُ والصِّدقُ، وهو الظن بهم؛ لأنهم هم خِيارُ هذه الأمة، وهم الذين رفعهم ورضي عنهم جلَّ وعلا كما قال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: 100]... إلى آخر الآيات التي تُبيِّن تَرَضِّي الله جلَّ وعلا على أوليائِه هؤلاء الكُمَّل رِضْوانُ الله عليهم من أصحاب النبي ﷺ والذين اتَّبعوهم بإحسان. وسيرةُ المؤمنين اليوم هي: كيف يكون اتِّباعُهم لهؤلاء على هذا الإحسان الذي ذكره الله تعالى في الآية الكريمة.

النوع الثاني: التَّوسُّل بدعاء الصالحين

أمَّا التوسُّل بدعاء الصالحين إلى الله تعالى فهو واردٌ في الشرع الحنيف، وهو من وسائل توسل المؤمنين اليوم لرفع البلاء، فقد كانوا يَسْتَسْقُون في أيام عمر ﷺ، فيقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا

كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا ﷺ فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[1]، ثم يقول: «قُمْ يَا عَبَّاسُ فَادْعُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَسْقِيَنَا»، فيقوم العباس ﷺ فيدعو فما يتم دعاءه حتى ينزل الغيث، ويستجيب الله له، وهذه المسألة مهمة من وجهين:

الوجه الأول: كيف يصل المرء إلى هذه الحالة وهي أن يكون هو نفسه محلَّ توسُّل المؤمنين إلى الله تعالى بدعائه هو إلى الله تعالى حتى يفرج عنهم.

الوجه الثاني: أن يكون حال المؤمنين على ذلك الحال الحَسَن وتلك الهيئة المشرَّفة، بحيث يكثر فيهم الصالحون، حتى يصلوا إلى تلك الدرجة بأن يدعوا الله تعالى فيرتفع البلاء؛ كما كان ذلك فيما سَلَف، فلا بد أن تكون ولايةُ الله تعالى أحدَ هُمُوم المؤمنين التي يُخطِّطون لها حتى يكونوا الأقرب إلى الله ومحل الاستغاثة من إخوانهم المؤمنين، ومحل تنزل الرحمة بهم أن يكون ارتفاع البلاء بهم[1].

النوع الثالث: التوسل بأسماء الله الحسنى

أمَّا التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا فقد أمَرَ اللهُ تعالى به في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: 180].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110][2].

وهذا أعظم الأبواب وله بحوث أخرى.

---

(1) أخرجه البخاري موقوفًا على أنس بن مالك ﷺ (3710).

(1) وقد ذكرنا في شرح محاضرات شرح اسم الله «الولي» ﷻ طُرُقَ تحصيل هذه الولاية، وشرحنا أيضًا موانعها. فارجع إليها للأهمية، وهي متوفرة في تسع محاضرات صوتية على مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

(2) وقد ذكرنا التوسلَ بأسماء الله الحسنى في سلسلة «شرح أحاديث فَكِّ الكرب». وهي خطبتان صوتيتان متوفرتان على موقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات، وقد ذكرنا كثيرًا من تلك الأسماء ومعانيها وكيفية التوسل بها في السلسلة الصوتية المُوسَّعة: «الفُتوحات الإلهية شرحُ الأسماء الحسنى للذَّاتِ العَلِيَّة» فارجع إليها للإفادة.

خاتمة

المؤمنون مطالبون الآن بهذا التفتيش والعمل والائتلاف، وبأن يبذلوا جهدًا ووقتًا ليُظهروا صِدْقَهم وإخلاصَهم لله تعالى؛ بأن يجتمع الصالحون ليتحمل كلُّ واحدٍ منهم مسئوليته، فإن المقصِّرَ مقصرٌ في انفراج الصخرة عنه وعن إخوانه من المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، وبقدر ما حَمَل من مسئولية بقدر ما فرَّجَ عليهم الصخرة، فإن تحمل مسئوليته تلك وقام بها انفرجت الصخرة على قدر هذه المسئولية. وصخرتُنا هذه الأيام صخرةٌ عظيمةٌ، قد مُلِئَتْ بالمصائب والآفات والمِحَن، ولا ملجأَ من الله إلا إليه، وإن الله تعالى - كما ذكرنا - في حديث الصخرة قد علم من حال أوليائه ذلك، وأنه هو الذي يُنْزِل ذلك ﷻ، ويَنْزل ذلك البلاء على عَيْنِه جلَّ وعلا، وينتظر ﷻ من المؤمنين أن يتوجهوا إليه بأن يرفع عنهم ما أنزل بهم ﷻ.

تُرى هل يحدث في كون الله تعالى ما لا يريده هو جل وعلا؟ لا. تُرى هل الذي يحدث في كون الله تعالى إلا ما قدَّر وقضى؟ نعم. وهل ذلك الذي قدَّر وقضى قد جعل له أسبابًا لينفرج؟ نعم، هو ﷻ يفعل بهم ذلك ليَرَى تلك الأسبابَ وذلك التضرعَ وتلك المواصلةَ لهذه الأعمال حتى يرتفع ذلك.

المؤمنون كلُّهم إذن مَدْعُوُّون أن يجلسوا في بيوت الله تعالى يومًا لينظروا في تلك المسئوليات التي أناطها[1] اللهُ تعالى بهم.. لِيَروا كيف يدفعون الصخرة التي لم ترتفع بسبب عدم قيامهم بهذه المسئوليات، وأن يفكروا في هذا التواني والتَّقْصير الذي قد جَنَوْه في حق أنفسهم وفي حقِّ غيرهم، علاوةً على نظر الله إليهم بتقصيرهم وتفريطهم ومحاسبته لهم ﷻ على ذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين. فماذا يضيرهم لو جلسوا وتحمَّلوا مسئوليتهم

(1) «ناط» الشيءَ بغيره وعليه: علَّقه. و«ناط» الأمرَ بفلان و«نِيط» عليه الشيءُ: عُهد به إليه. انظر: «المعجم الوجيز»، مادة: [ن ا ط].

وتخففوا من أعبائهم أمام الله تعالى يومًا ويومين وثلاثة. هل ينتظرون إلا أن يقعوا في المصيبة ويُذهَب بهم حتى يقولوا: «يا ربِّ يا ربِّ»؟!

تمَّت

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات

المحتويات

تقديم.....3
تمهيد.....5

الفصل الأول

التَّفاني في بِرِّ الوالدَيْنِ وخِدْمَتِهما وإيثارُهما على النَّفْسِ والأهلِ والوَلَدِ

تجهيز صالح الأعمال لرفع البلاء.....14
فضلُ برّ الوالدين وأهميتُه.....16
ازدياد أهمية بر الوالدين في حال كبَرهما أو كبَر أحدهما.....17
إيثار بِرِّ الوالدين وخدمتهما على مَن سواهما.....18
فَضْل تحمُّل المشقة في سبيل بر الوالدين وخدمتِهما.....19
بر الوالدين سبيلٌ لنَيْل دعوة الوالدين المستجابة لولدِهما.....21
أهمية الإخلاص في العمل الصالح.....22
فوائد.....25

الفصل الثاني

خشيةُ الله تعالى والعِفَّةُ والانْكِفافُ عن المُحرَّمات مع القُدْرة عليها والتوبةُ إلى الله تعالى وفَكُّ الكُرُبات عن المسلمين

دَفْعُ البلاء بالله تعالى.....28
العِفَّةُ والخوفُ من الله تعالى.....30
الانكفاف عن المحرمات.....32
الوقوف عند أوامر الله تعالى ونواهيه والحياء منه.....34
التوبةُ النَّصُوح.....36
وظيفة المؤمنين اليوم.....37

الفصل الثالث

أداءُ الأمانةِ والسماحةُ في المعاملة وحُسْن العَهْد

أولًا: حُسْنُ العَهْد........................ 44

ثانيًا: الأمانة........................ 45

ثالثًا: المسامحة........................ 46

وظائف العبد المؤمن بعد رفع البلاء........................ 47

الفصل الرابع

دروس مستفادة من الحديث

أولًا: عبرات من الحديث........................ 50

العبرة الأولى: لا يُرفَعُ البلاءُ عن المسلمين حتى يتحملَ كلٌّ مِنَّا مسئوليتَه........... 50

لماذا يبتلي الله عباده؟........................ 51

العبرة الثانية: التَّوسُّل بأفضلِ الأعمال........................ 52

العبرة الثالثة: اجتماع الصالحين وتعارفهم وتآلفهم وكونهم يدًا واحدة........... 54

ثانيًا: صفات قبول العمل الصالح........................ 54

الصفة الأولى: كانت أعمالهم أحسنَ الأعمال........................ 54

الصفة الثانية: كانت أعمالُهم خَبِيئةً بينهم وبين ربِّهم........................ 54

ثالثًا: التوسل إلى الله تعالى وأنواعه........................ 57

النوع الأول: التوسل بالأعمال الصالحة........................ 57

النوع الثاني: التَّوسُّل بدعاء الصالحين........................ 61

النوع الثالث: التوسل بأسماء الله الحسنى........................ 62

خاتمة........................ 63

http://debiessy.awardspace.com
موقع غير رسمي يحتوي على جميع المحاضرات الصوتية من خُطبٍ ودروسٍ لفضيلة الشيخ الدكتور/ محمد الدبيسي، حفظه الله تعالى وعفا عنه، كما يحتوي أيضًا على جميع كُتب فضيلة الشيخ الذي أجاز نشرها على الإنترنت.

صدر من هذه السلسلة؛ سلسلة: «شرح أحاديث سيد البشر ﷺ»:

(1) شرح حديث «احفظْ الله يحفظك».